مَعنى لا إلهَ إلا اللهُ

تأليف

العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري

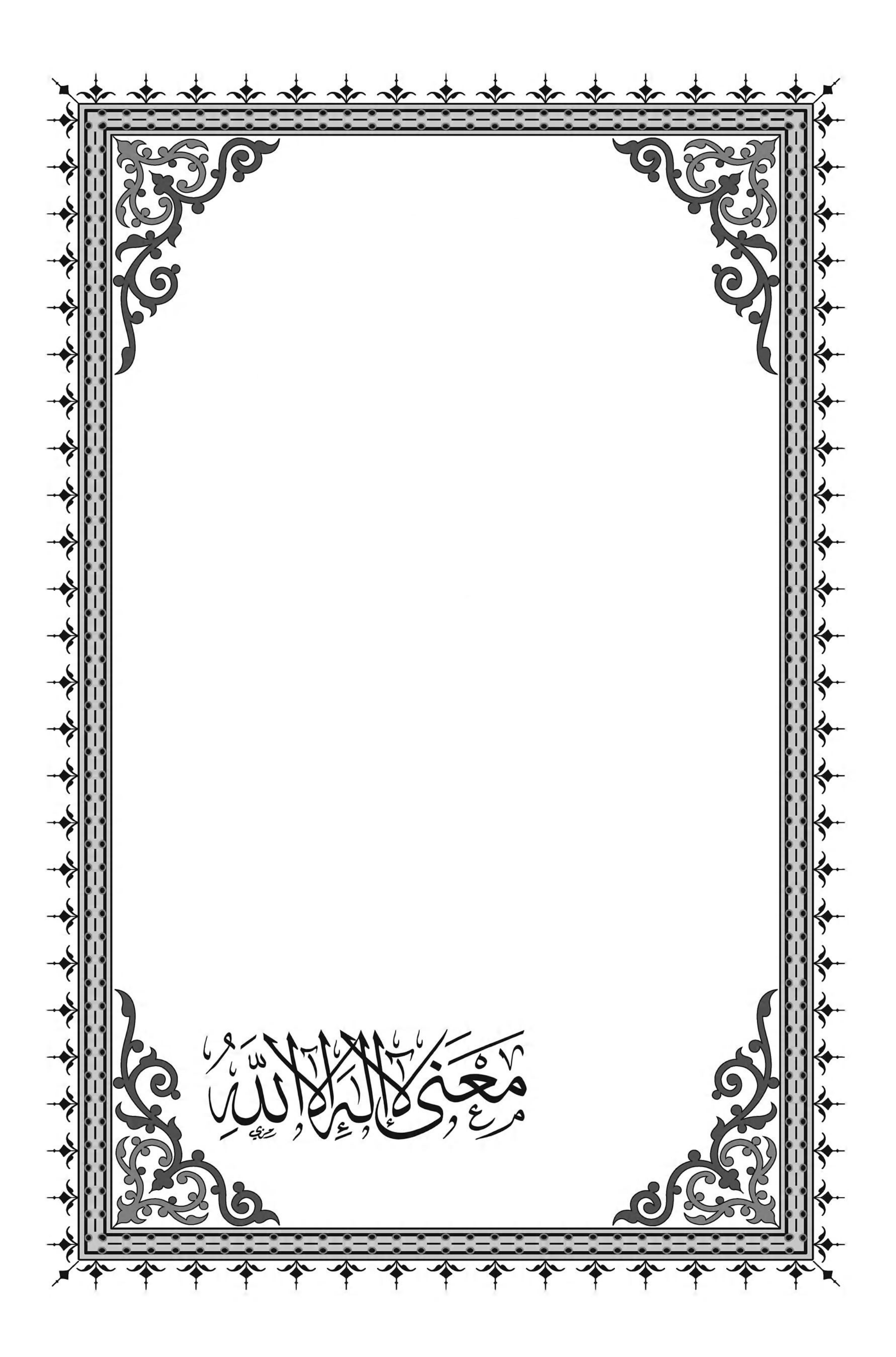
(١٣٣٥-١٤٢٠هـ / ١٩١٧-٢٠٠٠م)

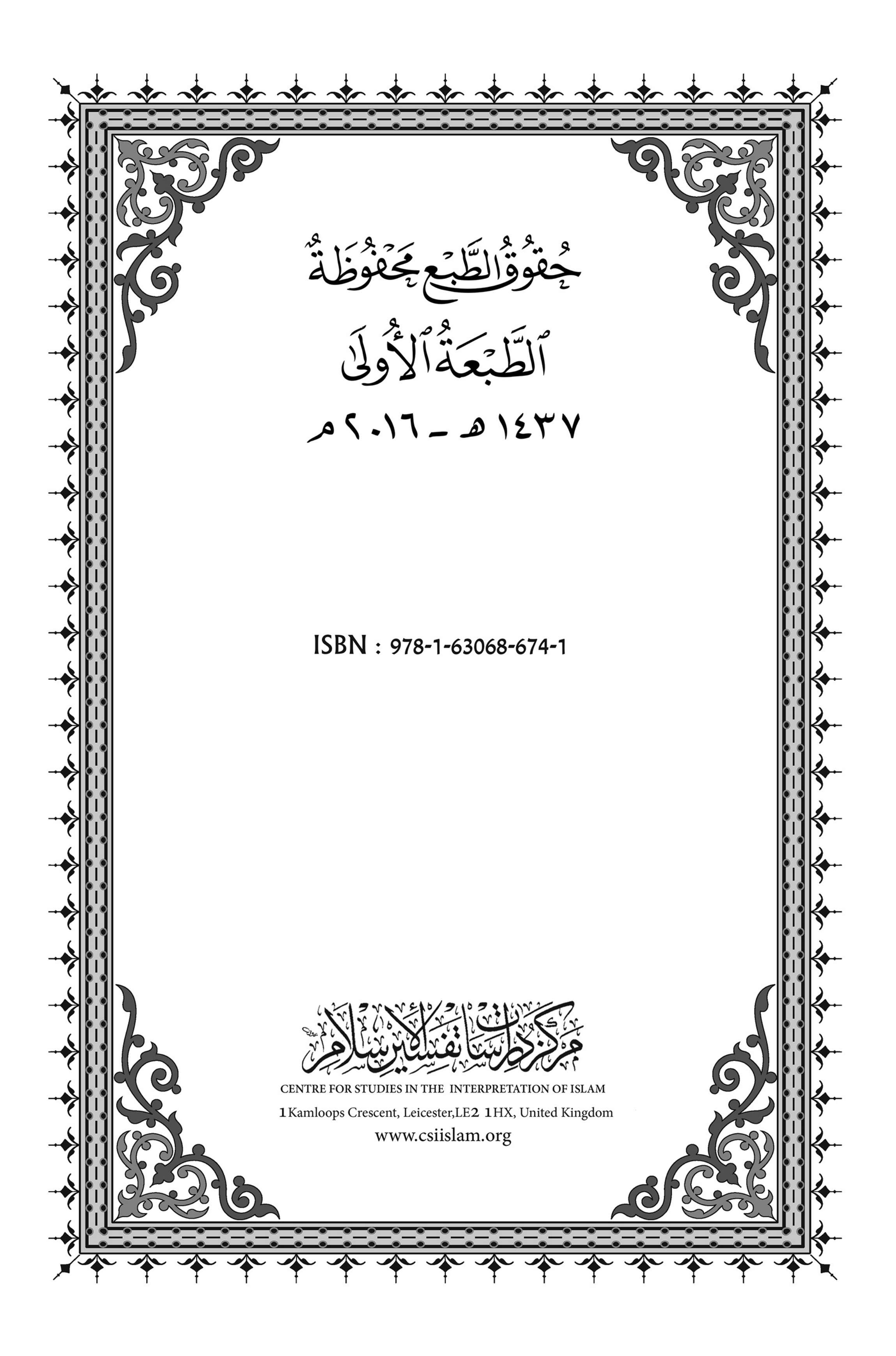
رحمه الله تعالى

تقديم وتعليق

عبد الحق بن ملا حقي التركماني




معنى لا إله إلا الله



الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

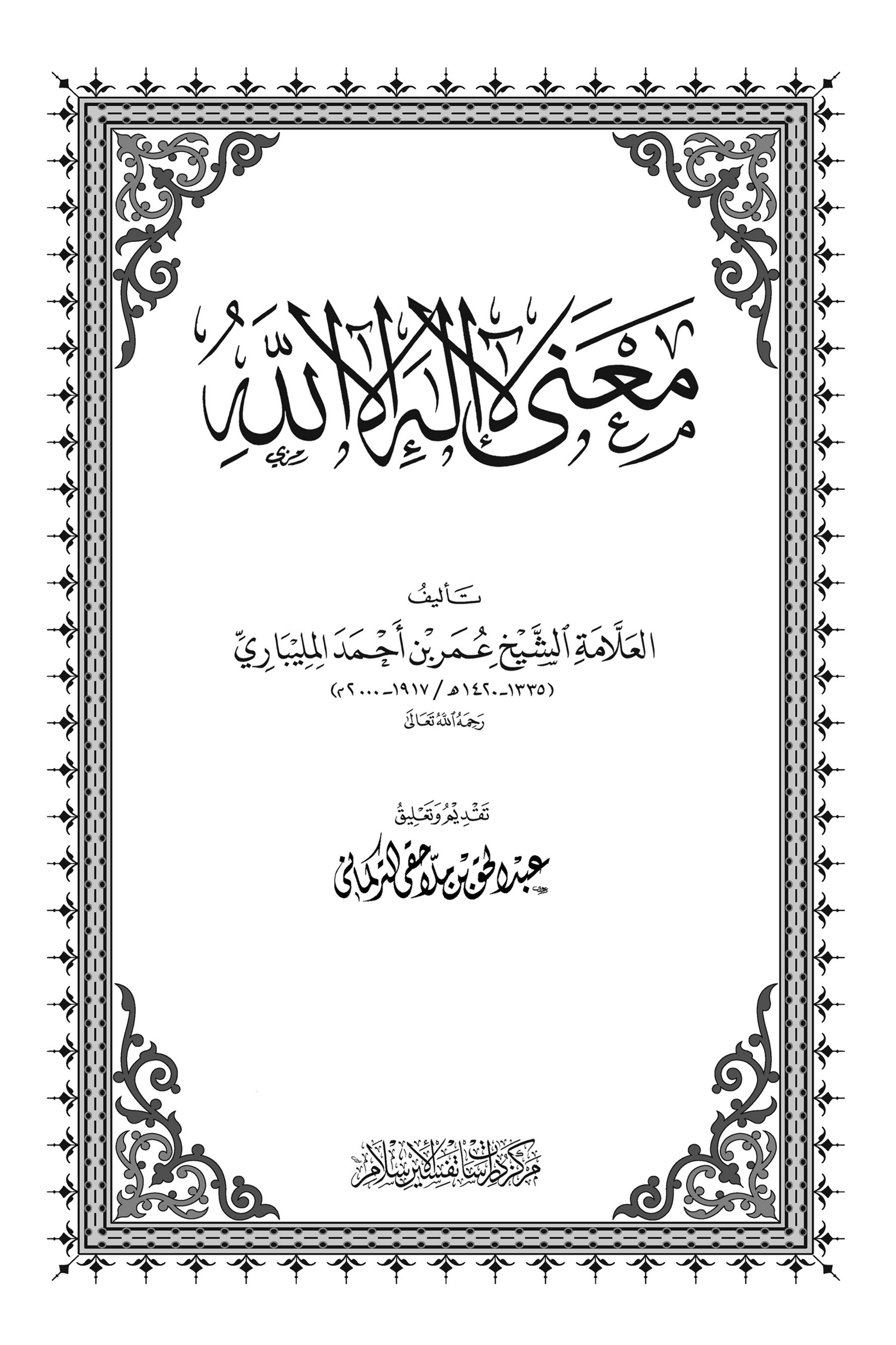
ISBN : 978-1-63068-674-1

مركز دراسات تفسير الإسلام

CENTRE FOR STUDIES IN THE INTERPRETATION OF ISLAM

1 Kamloops Crescent, Leicester, LE2 1HX, United Kingdom

www.csiislam.org



معنى لا إله إلا الله

تأليف

العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري

(١٣٣٥-١٤٢٠هـ / ١٩١٧-٢٠٠٠م)

رحمه الله تعالى

تقديم وتعليق

عبد الحق بن ملا حقي التركماني

مركز دراسات تفسير الإسلام



فهرس المحتويات الإجمالي

الموضوع	الصفحة
* **تقديم التركماني**	٧
ـ نبذة عن سيرة الشيخ عمر بن أحمد المليباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٣٥ ـ ١٤٢٠هـ/ ١٩١٧ ـ ٢٠٠٠م)	٤١
ـ معنى لا إلٰه إلا الله لسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ	٤٥
جواب ابن باز للمودودي فيما يتعلق بالفرق بين العبادة والطاعة	٤٩
ـ محاولة ناجحة بفضل الله لتمييز الحق مما يقول الناس في: معنى لا إلٰه إلا الله	٥١
ـ بلغ السيل الزُّبَى	٥٣
ـ معنى العبادة	٦١
ـ أَساس استحقاق العبادة	٦٥
ـ مفهوم الدعاء ومنزلته	٦٧
ـ حول تعريف ابن تيمية للعبادة	٨٣
ـ المودودي وتعريف العبادة	٨٧
ـ معنىٰ: «أشهد»	٨٩
ـ الرد علىٰ من قال: معناها: لا ربَّ إلّا الله	٩٣
ـ الرد علىٰ المودودي في تفسير العبادة بالطاعة	١٠١
ـ حزب الشيطان	١١٤
ـ معنى لا إلٰه إلَّا الله وما وقع فيه من الخلاف	١١٥

الموضوع | الصفحة

ـ الخاتمة ١٣٤
ـ المسلمون في كيرلا ١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

يأتي اهتمامنا بنشر هذا البحث النَّادر للعلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري رحمه الله في إطار عملنا على إبراز جهود العلماء والباحثين في مواجهة التفسير السياسي للدين، الذي يمثِّلُ أخطر التيارات التحريفية التي تهدد جوهر الإسلام وحقائقه الكبرى في العصر الحديث. لقد ابتدأنا هذا المسار بنشر رسالة المفكر الهندي الكبير وحيد الدين خان ـ سدَّد الله قوله وعمله ـ: «التفسير السياسي للدين»، ورسالة العلامة الشيخ أبي الحسن النَّدوي رحمه الله: «التفسير السياسي للإسلام»، وقد أخبرني بعض الأفاضل من الهند أن في اللغة الأردية رسائل وكتبًا أخرى، سنبذل جهدنا في الاطلاع عليها وترجمتها ونشرها، إن شاء الله تعالى.

الأمر الملفت للنظر في جهود هؤلاء الثلاثة أنهم قد بذلوا عقودًا طويلة من أعمارهم في الكشف عن هذا الانحراف الجذري في فهم الإسلام، والتحريف الكليِّ لمقاصده ومعالمه؛ فقد بدأ كلٌّ من وحيد الدين خان والندوي بالتحذير منه في كتبهما ورسائلهما ومحاضراتهما منذ سنة (١٩٦٠م) تقريبًا، ومات الندويُّ سنة (١٤٢٠/١٩٩٩)، وكانت آخر صرخة له في الأمة تحذيرًا من هذا

المنهج الجديد من قلب العالم الإسلامي وقبلته: المسجد الحرام، مستغلًّا فرصة اجتماع عدد كبير من العلماء والدعاة وأصحاب الفكر والقلم في «مؤتمر الدعوة والدعاة» الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في شهر صفر (١٤٠٨). لقد قوبلت جهود الرجلين في النصيحة والتحذير والبيان بالتهميش والإهمال والحَجْر، واستطاعتْ «إمبراطوريةُ الإعلام الحركي» أن تقذِفَ بها في زوايا النسيان، وإذا ما ذُكرت عرضًا فإنها تذكر في إطار الخلاف الجزئي بين بعض الدعاة في تقرير بعض المسائل الفرعية، وهكذا ظلَّت حقيقة «التفسير السياسي للإسلام» مجهولةً عند العلماء والباحثين وطلبة العلم والدعاة، إلا ما شاء ربُّك، وقليلٌ ما هم.

(٢)

قصة مؤلِّف هذه الرسالة الشيخ عمر بن أحمد المليباري لم تكن مختلقة، فقد بدأ بالنصيحة والتحذير قبل سنة: (١٣٩٢/ ١٩٧٢) بمدَّة، وكتب «استفتاءً تعميميًّا»[١] أرسله إلى كبار العلماء وهيئات الإفتاء ملتمسًا منهم بيان الحكم الشرعي الصحيح في انحراف المودوديِّ وجماعته في تفسير العبادة بالطاعة، فكتب الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللهُ رسالة إلى

(١) الاستفتاء والتاريخ أعلاه من رسالة الشيخ ابن باز إلى الأستاذ المودودي الآتية. ولم نقف على الاستفتاء، وقد تفضل بالبحث عنه ابن المؤلف الشيخ مبارك بن عمر المليباري، فلم يعثر عليه، جزاه الله خيرًا على جهده وتعاونه الكريم.

المودوديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفريق بين العبادة والطاعة، راجيًا منه ـ بأدبه الجمِّ ـ بيان رأيه في المسألة تفصيلًا، ويبدو لنا أن ذلك «الاستفتاء» هو الذي حمله ـ أيضًا ـ على كتابة «كلمة حول معنى: لا إلٰه إلا الله»، ابتدأها بقوله: «فقد اطلعت على الكلمة التي كتبها أخونا في الله العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري في معنى لا إلٰه إلا الله، وقد تأملت ما أوضحه فضيلته في أقوال الفرق الثلاث في معناها.. والصواب هو الأول كما أوضحه فضيلته،...». ولعلَّ كلمة ابن باز جاءت بعد اطلاعه على الرسالة التي طبعها الشيخ عمر المليباري، فقد استمرَّ في إلحاحه على النصيحة والتحذير، وكتب في ذلك رسالة موجزة بعنوان: «معنى لا إلٰه إلا الله، وما وقع فيه من الخلاف»، طبعها في الهند سنة (١٩٨٥م)، في (٥٣) صفحة من القطع الصغير، ثم أعاد تأليف هذه الرسالة، وتوسَّع فيها، وطبعها سنة (١٤١٢/ ١٩٩٢)، وسمَّاها: «محاولة ناجحة بفضل الله لتمييز الحق مما يقول الناس في: معنى لا إلٰه إلا الله». وذكر: أن «هذه الطبعة ليست للتوزيع بين عموم الناس، وإنما هي لعرضها على العلماء والدعاة لكي يتفضلوا بالإرشادات: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]. وأنا شاكر لكلِّ من يعتني بهذا الطلب وأدعو له، وأن يكتب بعضهم ما لا أستطيع الموافقة عليه أنشره مع بيان سبب المعارضة،..». وهذا يدلُّ على أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يريد معرفة رأي العلماء والدعاة فيما كتب ليستفيد من ملاحظاتهم، ويقوم على ضوئها بإصدار طبعة عامة، لكن قد عاجلته المنيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

ولا نعلم إن كان المؤلف قد حصل على أجوبة من العلماء، غير ما وجدناه للشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومهما يكن فقد انقضى سبب تضييق دائرة نشر الكتاب في حياة المؤلف، وها نحن أولاء ننشره نشرة عامة، سائلين المولى عَزَّ وَجَلَّ أن ينفع به، ويجعله من العلم الذي ينفع صاحبه في قبره، إنه جواد كريم.

(٣)

تكتسب كل رسالة من الرسائل الثلاث خصوصيتها وأهميتها من شخصية مؤلفها العلمية، وطريقته المنهجية، واهتمامه الديني:

أما العلامة وحيد الدين خان فقد كتب رسالته في ضوء رؤيته المنهجية الكلية لهذه القضية، فكان في غاية الموضوعية والدقة في معالجتها، واستطاع بأسلوب سهل، قريب المنال أن يوضِّح حقيقة نظرية تفسير الإسلام، وينبِّه على أبعادها الخطيرة. من هنا فإني أجزم أنه صاحب السبق في التأصيل لهذه المسألة، وربطها بالبنية الكلية لفهم حقيقة الدين ورسالة الدعوة. هذا الإنجاز العلمي الكبير تفرَّد به العلامة وحيد الدين خان، أصاب فيه وأجاد، وإن كان أخطأ في تقرير مسائل أخرى؛ علمية ومنهجية ودعوية، لهذا حرصت على التثبُّت من اعتقاده في أصول الدين ومهمات الاعتقاد على منهج السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، وكتبت في ذلك نبذة، قُرئت عليه، فأقرَّها لفظًا ومعنًى[١]، ثم إن بعض الأفاضل من

(١) نشرتها ملحقًا بكتاب: «التفسير السياسي للدين» **٣٤٣-٣٥٤**.

أهل العلم وطلابه في الهند أخبروني ـ بعد نشر الكتاب ـ بانتقاداتهم الكثيرة على وحيد الدين خان، وحذَّروني من أخطائه التي ظهرت أكثرها في السنوات الأخيرة، وتحديدًا بعد حادثة تدمير مسجد بابري سنة (١٩٩٢م)[(١)].

أقول: كلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا رسول الله ﷺ، وأنا أبرأ إلى الله من كلِّ اعتقاد أو قول أو عمل يخالف الكتاب والسنة ومنهاج السلف الصالح، ولا بدَّ أن تدرس كتابات الشيخ وحيد الدين خان بعلم وفقه وإنصاف، فيردَّ ما أخطأ فيه، ويميَّز بين ما يُعذر فيه، وما لا يعذر فيه، وبين ما هو في أصول الديانة ـ فلا يتسامح فيه ـ، وما هو في فروعها ـ فأمره يسير قريب ـ.

أما العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله؛ فقد تميَّز بالاهتمام بالجانب التربوي والدعوي في مواجهة هذا التفسير الجديد، فنبَّه على آثاره السيئة على الاعتقاد والسلوك وبناء الشخصية المسلمة، وحذَّر من نتائجه الوخيمة في الانحراف الجذريِّ في أهداف الدعوة الإسلامية ومقاصدها. وتميَّز ـ أيضًا ـ باستدلالاته الرصينة بنصوص

---

(١) حيث قام متعصبو الهندوس بحرق وهدم المسجد البابري، وأشعلوا في الهند فتنة عظيمة كادت أن تحرق الأخضر واليابس، فكان للأستاذ وحيد الدين خان رأيه الخاص في معالجة تلك النازلة العظيمة، ولم يكن عامة المسلمين ـ وهم في حال الغضب والانفعال ـ على استعداد للاستماع إلى وجهة نظره ومناقشة رأيه، كما لم يجرؤ أحد من قيادات الجماعات الإسلامية على ذلك؛ مراعاة لمشاعر العامة، ويبدو أن وحيد الدين خان لم يحسن اختيار المكان والزمان ولا الأسلوب في عرض رأيه، فعظمت الفجوة بين الفريقين، والله المستعان.

الكتاب والسنة، واقتباساته القيمة من كلام الأئمة، واستفادته من ثقافته التاريخية الواسعة، لكن لم يستطع ـ غفر الله له ـ التخلصَ من نزعته الصوفية، كما بينته في مقدمتي وتعليقاتي على رسالته.

أما العلامة عمر بن أحمد المليباري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد تميَّز بالعناية بقضية واحدة من القضايا الكلية لتفسير الإسلام، وهي «مفهوم العبادة وتفسيرها بالطاعة»، وباعثه في هذا اهتمامه بالعقيدة السلفية وقيامه بما أوجب الله تعالى على أهل العلم من بيان التوحيد الخالص لله عَزَّ وَجَلَّ ونفي الشرك. ولا شكَّ أن تفسير العبادة بالطاعة بالمفهوم السياسي والنفعي؛ ينقض أصل التوحيد الذي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو الغاية من خلق الجنِّ والإنس، وشرط النجاة يوم البعث والنشور. من هنا: نجد أن المليباري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يُعنَ بربط هذه القضية بهيكلها المنهجي والفكري الذي يشكِّل نظرية التفسير السياسي للإسلام، واكتفى بالتنويه إلى جهد: «العلامة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدْويِّ»، واصفًا ردَّه على المودودي بالردِّ القويِّ الحكيم: «وقد أحسن وأجاد جزاه الله خيرًا». ولم يشر إلى كتابات وحيد الدين خان. لا ندري هل تجاهلها بحكم المخالفة المنهجية بينهما، أم لم يدرسها لعدم اهتمامه بالكتابات الفكرية.

إن هذه الأبحاث الثلاثة تمثِّل مادة أساسية مهمة في دراسة ظاهرة التفسير السياسي للإسلام، وتبقى الحاجة قائمة لمزيد من البحث والدراسة والكتابة للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة وجذورها وأضرارها ومخاطرها، وهو ما سأمضي في العمل عليه فيما تبقَّى لي

من أيامٍ في هذه الدنيا الفانية، ومن الله تعالى أستمدُّ العون والتوفيق.

(٤)

تفسير «العبادة» بأنها «الطاعة»، أي أنهما مترادفتان، أو ادعاء أن الطاعة هي القضية المركزية للعبادة؛ هو أهمُّ أسس نظرية التفسير السياسي للإسلام؛ فكيف ذلك؟

تتأسس هذه النظرية على دعوى أن الغاية من الخلق والدِّين والرسالة والنبوة والعبادة والشريعة هي إقامة عدل الدنيا وعمران الأرض وفق المنهج الإلهي. وهنا تظهر أهمية مبدأ «الطاعة» باعتبارها الشرط الأساس لتحقيق تلك الغاية، فالطاعة ـ إذن ـ هي بمثابة «الغاية» نفسها في الأهمية، لأنه لا يمكن بلوغها إلا بواسطة تنفيذ ذلك المنهج. ومن جهة أخرى: فإن تلك «الغاية» هي التي تُكسِب الدين والعبادة والشريعة أهميتها البالغة، ومنزلتها العالية، لأنها ـ أيضًا ـ شرطٌ للارتباط بها، والعمل من أجلها، والتدرُّج إلى بلوغها. وهكذا تصبح الديانة والعبادة ـ حسب هذه النظرية ـ مجرد وسائل وأدوات لتهيئة الإنسان للقيام بالمهمة التي خُلق من أجلها.

هذه العقيدة هي في حقيقتها نسخة مصغرة، أو صورة مخففة من عقيدة غلاة الفلاسفة والباطنية ـ كالفارابي وابن سينا ـ في تفسير الدين، وتلتقي ـ أيضًا ـ بالفلسفات النفعية والأداتية (البراغماتية) الغربية، وإن كانت لا تبلغ في ضلالها درجة تكذيب حقائق النبوة والبعث والنشور. أما عقيدة أهل الإسلام ـ على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، دع عنك الغلاة الخارجين عن دائرته ـ

منذ الصدر الأول وحتى يوم الناس هذا فشيء آخر. إنهم متفقون على أنَّ أصلها المتين، وركنها الأعظم في اعتقاد أنَّ الدِّين والعبادة هي الغاية المقصودة من الخلق، تعبدًا لله ﷻ وتذللًا إليه، طمعًا في رضاه والجنة، وخشية من غضبه والنار. هذه العلاقة بين العباد وربِّهم هي الغاية المقصودة، وما عداها من أحكام الشريعة التي فيها القيام بمصالح الدنيا وسياسة الناس وإقامة العدل بينهم؛ فإنما هي مقصودة بالتبعية لا بالأصالة، وتكتسب أهميتها من إقامة ذلك الأصل الذي عليه مدار الفلاح والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة.

هنا كان لا بدَّ للفكر الحركي أن يقدِّم للمسلمين نموذجًا في تفسير الدين يستلهم النظرية الفلسفية النفعية الأداتية، لكنه يستبعد بُعدها الإلحادي، ويجعلها متوافقةً ـ إلى حدٍّ كبير ـ مع المفهوم الصحيح المغروس في العقل الجمعي للمسلمين. هكذا تشكَّل «التفسير السياسي للإسلام» الذي يقرُّ بأن العبادة هي الغاية من الخلق، ويؤمن بالبعث والنشور والجنة والنار، لكنَّه يحرف مفهوم «العبادة» من المفهوم الصحيح المعروف عند خاصة المسلمين وعامَّتهم، إلى مفهوم جديد يتمثَّل في العمل لإقامة العدل الدنيوي وعمارة الأرض وسعادة البشرية. وبما أن هذا العمل هو الغاية من الخلق، لأنه هو العبادة الأصلية المقصودة لذاتها؛ فإن النجاة في الآخرة والفوز بالجنة إنما تكون به. ولا يخفى على اللَّبيب أن تحريف «مفهوم العبادة» هو تحريف لحقيقة العبادة نفسها، وهو في النتيجة الضروريَّة: تحريف للغاية نفسها، فلا فرق بين أن نقول: إنهم يجعلون غاية الخلق شيئًا آخر غير العبادة. أو نقول: إنهم يفسِّرون

العبادة بمفهوم آخر يجرِّدها من حقيقتها ومقصدها. هكذا ظهرتْ أجيال جديدة من المسلمين، غُرس في أعماق نفوسهم أن العمل من أجل عمران الأرض، والانهماك في ذلك، والمغالبة على السلطة والقوة في المجتمع، وبلوغ «أستاذية العالم» هي الغاية التي تحقِّق معنى الوجود الإنساني، وتبلغ به مراتب السعادة الدنيوية والأخروية. إن هذه المهمة لا يمكن أن تتحقَّق من غير «الطاعة المطلقة»، فلا جرَمَ أن تحتل مكانة مركزية في غاية الوجود الإنساني، وإذ هي كذلك فليس أقلَّ من أن تبلغ مصافَّ «العبادة المحضة»، وتصبح مرادفة لها، بل تصبح هي العبادة الحقيقيَّة الكبرى، وسائر العبادات تابعة لها بدرجة ثانوية. هكذا ظهرت مصطلحات وشعارات من مثل: «الحاكمية»، و«الإسلام هو الحل»، و«الخلافة أو الموت»!

إذن؛ نحن أمام «منظومة عقيدية وفكرية متكاملة» تقدِّم تفسيرًا لحقائق الدين والعبادة والشريعة، تعيد فيه إنتاج النظريات الفلسفية القديمة والمعاصرة في قالب إسلاميٍّ غَرور، لا يمكن إدراك أبعاده، والتنبُّه لمخاطره؛ إلا من خلال جمع خيوطه، والربط بين مقولاته، والتأمل في نتائجه وآثاره. وهذا ما نحاول أن نفعله من خلال أبحاثنا المتعمقة المستمرة، والاكتشافات التي توصلنا لها حتى الآن في غاية الأهمية، فهي تجلِّي حقيقة الفكر الحركي خلال مئة عام، وتضع اليد على «الخيط الناظم» لدعوة ابن صفدر الإيراني، وحسن البنا، وسيد قطب، وعلي شريعتي، والخميني، والمودودي، ومحمد البهي، وغيرهم كثير، إلى أن نصل إلى دعاة الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي، ونفهم ما الذي أدى إلى «الحريق العربي»، وكيف

صدرتْ فتاوى إطلاق وصف «الشهيد» على المنتحر سخطًا على قضاء الله وقدره؟! وفتاوى تفضيل الاعتصام في ميادين الثورات على الاعتكاف في المساجد حتى المسجد الحرام؟! ووُصِفت الثورةُ بالعبادة؟! وكيف حصلت التغيُّرات السريعة والتقلُّبات المفاجئة في آراء ومواقف الإسلاميين الحركيين؟!

في كتابَي وحيد الدين خان والندوي وفي مقدمتي وتعليقاتي عليهما نماذج كافية من الاقتباسات الموثقة بذكر مصادرها لإثبات ما أجملت ذكره أعلاه، لكن لا مناصَّ من أن أذكر هنا بعض الاقتباسات، حتى لا تكون الدعوى ـ في هذا المقام ـ عريَّة عن البرهان:

يقرِّرُ المودودي أن العبادات المحضة الخالصة وسائلُ وأدوات لغاية أخرى فيقول:

«إنَّ الصلاة والزكاة والحج كلها للتربية، كما أنَّ دول العالم تقوم أولًا بتربية شعوبها للجيش والأعمال المدنيَّة ثم تستخدمهم فيها، كذلك الدِّينُ الإسلاميُّ يربِّي ـ بطريقةٍ خاصَّة ـ مَنْ يدخل فيه ويتجنَّدُ لخدمته، ثم يستخدمه للجهاد والحكومة الإلهيَّة». ثم يقول: «أيها الإخوة! لعلكم قد فهمتم جيِّدًا الغرضَ الذي لأجله شُرعتِ الصلاة والصيام والحج والزكاة، لقد كنتم تفهمون إلى الآن، وأَفهَمُوكُم هذا الفهمَ الخاطئ: أنَّ العبادات هي نوعٌ من الأشياء التعبُّديَّة، ولم يُخبروكم أنَّها للإعداد للخدمة الكبرى!»[١].

(١) «خطابات» للمودوديِّ، ص: ٢١٥ و٢١٨، كما في «الأستاذ المودودي =

يقصد بقوله: «أفهموكم» علماء الأمة ودعاتها. وبقوله: «الإعداد للخدمة الكبرى» أي: تنفيذ مشروع إقامة الدولة وإعمار الأرض!

ويقول المودوديُّ أيضًا:

«إنَّ العقبة الثانية في طريق الحركة الإسلامية هي المذهبيَّة الجامدة اللاروحية، والتي يعبَّر عنها بالإسلام في العصر الحديث، فأول نقصٍ أساسيٍّ لهذه المذهبيَّة الخاطئة أنَّها اعتبرت العبادات تعبُّدًا محضًا، مع أنَّها وسائلُ لإِحكام الأُسس الخلقية والعقلية التي أَسَّس عليها الإسلامُ نظامَه الاجتماعيَّ»(١).

قلت: لا شكَّ أن الأمة الإسلامية قد ابتليت في العصور المتأخرة بالمذهبية الجامدة، ولكنها لم تكن كما وصفها «لا روحيَّة»، بل كانت الصفة الغالبة على العلماء والدعاة المذهبيِّين التديُّن وتعظيم العبادات وحب الله ورسوله ودينه؛ لهذا توجه كثير منهم إلى التصوف بسبب الجهل وانتشار البدع. وفي المقابل فإن الإسلام السياسي الحركي قد أبدل الجمود المذهبي بالجمود الحزبي، وهو الذي يتصف ـ حقًّا ـ باللاروحيَّة؛ إن جاز استعمال هذا المصطلح.

= ونتائج بحوثه وأفكاره» للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (ت: ١٤٠٢)، طبع باكستان: ١٣٩٧، ص: ٤٦.

(١) مجلة «ترجمان القرآن» المجلد ١٧ العدد ٤ ص: ٢٦١، كما في «الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره» ص: ٤٧.

ويقول أيضًا:

«هذا هو الغرض الذي من أجله فُرضت الصلاة والصوم والزكاة والحجّ في الإسلام، وليس معنى تسميتها بالعبادات أنها هي العبادات، بل معناه: أنَّها تُعِدُّ الإنسانَ للعبادة الأصلية، وهذه دورة تدريبيَّة لازمة لها»[(١)].

ويقول المودودي أيضًا:

«إن الله قد أراد ببَعْثِهم أن يقيم في العالم نظام العدالة الاجتماعية Social Justice على أساس ما أنزله عليهم من البيِّنات، وما أنعم عليهم في كتابه من الميزان، أي: نظام الحياة الإنسانية العادل»[(٢)].

أما سيد قطب فأكتفي بهذا الاقتباس من كلامه؛ حيث جعل العبادات التي هي أركان الإسلام، وهي صلب الدين ولبُّه؛ في مرتبة ثانوية جزئية من الغاية التي خلق الله الجنَّ والإنس من أجلها وهي: الخلافة وعمارة الأرض ـ فصرَّح بعبارة واضحة جلية لا تقبل التأويل بما نصُّه:

«إنما أطلقتْ لفظةُ «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورةً من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون،

---

(١) «العبادات الإسلامية» للمودودي، ص: ١٢، كما في «الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره» ص: ٤٤.

(٢) «نظرية الإسلام السياسية» للمودودي، دار الفكر، دمشق: ١٩٦٧م، ص: ٤٠.

صورةً لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنَّها تجيء بالتبعية لا بالأصالة!»[١].

ثم أكَّد سيد قطب بأن هذا التقرير الصريح هو مراده مما كتبه في مفهوم العبادة في كتبه المختلفة، فقال:

«هذه الحقيقة هي التي قرَّرناها كثيرًا في هذه «الظلال» وفي غيرها، في كلِّ ما وفَّقنا الله لكتابته حول هذا الدِّين وطبيعته ومنهجه الحركيِّ»[٢].

وبناءً على هذا: إذا وُجد لسيد قطب كلام يوافق في ظاهره المفهوم الصحيح للعبادة عند أهل التوحيد والسنة؛ فيجب أن يحمل على هذا المفهوم الخاص عند سيد قطب، ويفسَّر في ضوئه، أعني قوله: «مدلول «الشعائر التعبدية» لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنَّها تجيء بالتبعية لا بالأصالة!»، وقد كرَّر هذه العبارة ـ على وجه التأكيد ـ في موضعٍ آخر.

ثم إنَّ سيد قطب قد أحال في هذا الموضع إلى المودوديِّ قائلًا:

«يُراجع البحث القيِّم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان: «المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله، الرب، الدين، العبادة».».

---

(١) «في ظلال القرآن» ٤/ ١٩٠٢.

(٢) «في ظلال القرآن» ٤/ ١٩٠٢.

ولا برهانَ أقوى من هذا على تأثُّره بالمودودي، وأخذه عنه، وتبنيه لنظريته في تفسير النبوة والدين والعبادة.

هذه المقدمات كان لا بدَّ أن تنتهي بسيد قطب إلى الغلو في مسألة «الطاعة»، لهذا نجده يقول:

«إنَّ من أطاع بشرًا في شريعةٍ من عند نفسه، ولو في جزئيَّةٍ صغيرةٍ، فإنَّما هو مشرك. وإن كان في الأصل مسلمًا، ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا، مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إلٰه إلا الله بلسانه. بينما هو يتلقى من غير الله، ويطيع غير الله».

وبناءً على هذا التأصيل ينتقل سيد قطب إلى الحكم على المجتمعات المعاصرة، فيقول ـ في تمام كلامه السابق ـ:

«وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم ـ في ضوء هذه التقريرات الحاسمة ـ فإننا نرى الجاهلية والشرك، ولا شيء غير الجاهلية والشرك، إلا من عصم الله فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعًا ولا حكمًا إلا في حدود الإكراه»(١).

(٥)

استوقفتني في بحث الشيخ عمر المليباري رحمه الله مسائل، أرى من المناسب أن أتعرض لها هنا بشيء من المناقشة والتفصيل:

(١) «في ظلال القرآن» [الأنعام: ١٢١] ٣/ ١١٩٨.

المسألة الأولى: معنى العبادة: فقد اختار الشيخ تعريفَ الفخر الرازيِّ: بأنَّها «نهاية التعظيم»، ثم اعترض على القول بأنها: «غاية الذل والخضوع»، فقال: «ففيه نظر؛ لأن الذلَّ لازم كالخضوع، والعبادة متعدِّية لم ترد لازمًا في القرآن ولا في الحديث ولا في الأدب، ولكن هذا الخطأ يعفى عنه؛ لأن الذلَّ يستلزم التعظيم، ولكن ما دام الطريق واضحًا سالمًا فسلوكه أولى وأسلم».

ثم قال: «وأما قول بعضهم: «ومنه طريق معبَّدٌ، أي: مذَلَّلٌ بكثرة وَطْأَة الأقدام، وبعيرٌ معبَّدٌ؛ أي: مذَلَّلٌ بكثرة تسخيره للركوب»، فلا يصحُّ؛ لأنَّ معبَّدًا ليس من «عَبَدَ» المتعدِّي بفتح الباء، بل من عَبُدَ اللازم بضمِّ الباء، وكذلك: ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء] ليس من «عَبَدَ» المتعدِّي؛ لأن المفسرين قالوا في معنى الجملة: «اتَّخذْتَهُم عبيدًا». فلازم كون معنى المجرَّد: «صار عبدًا»، والفعل المجرَّد المتعدِّي إلى واحدٍ إذا ضُعِّفَ يتعدَّى إلى مفعولين، واللازم إذا ضُعِّف يتعدَّى إلى واحد، وإن «عبَّد» في الآية تعدى إلى مفعولٍ واحدٍ فلا شكَّ أنَّ المجرَّد لازمٌ وهو: «عَبُدَ» بضم الباء وليس «عَبَدَ» بفتح الباء. يظهر أنَّ الناسَ لم ينتبهوا إلى الفرق بين «عَبَدَ وعَبُدَ» ومصدريهما، والعبودية جاءت مصدرًا لعَبَدَ فمعناها العبادة، ومصدرًا لعَبُدَ فمعناها الرِّقُّ، أي: كونُ الإنسان رقيقًا مملوكًا. والخلاصة أن الصواب في معنى العبادة ما ذكره الإمام الرازي وغيره، وهو قولهم: نهاية التعظيم».

قلتُ: في اعتراضات الشيخ المليباري رَحِمَهُ اللَّهُ نظر يتبيَّن مما يلي:

١ ـ أَن الفخر الرازيَّ تنوعت عباراته في تعريف العبادة، ولم يقتصر على ما نقله المليباري، بَلْهَ أن يدَّعي حصر مفهومها بنهاية التعظيم، وهذه نماذج من أقواله في تفسيره:

قال أثناء كلامه على تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: «العبادة عبارةٌ عن الفعل الذي يُؤتَى به لغرض تعظيم الغير، وهو مأخوذ من قولهم: طريق معبَّد، أي مذلَّلٌ»، «العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام»، «أن يعبد الله لكونه إلهًا وخالقًا، ولكونه عبدًا له، والإلهية توجب الهيبة والعزة، والعبودية توجب الخضوع والذلة».

وقال: «العبادة عبارة عن تعظيم الله تعالى وإظهار الخضوع له» [البقرة: ٢١].

وقال: «العبادة عبارةٌ عن إظهار الخضوع والخشوع، ونهاية التواضع والتذلل، وهذا لا يليق إلا بالخالق المدبِّر الرحيم المحسِن» [هود: ٢].

وقال: «العبادة تنبئ عن معنى التذلل» [يس: ٦٣].

وقال: «ذكرنا أنَّ العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون» [قريش: ٣].

وفسَّر العبادة بالطاعة في السياق المناسب لذلك؛ فقال في تفسير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ

﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ]: «وقالوا: بل كانوا يعبدون الجنَّ، أي: كانوا ينقادون لأمر الجنِّ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجنَّ، ونحن كنَّا كالقبلة لهم، لأنَّ العبادة هي الطاعة».

ودليلنا على أنَّ الرازي فسَّر العبادة ـ هنا ـ بالطاعة لمقتضى السياق؛ أنَّه عند التفصيل صرَّح بنفي الترادف بينهما، فقال: «العبادة هي التذلُّل، ومنه: طريق معبَّدٌ، أي: مذلَّل، **ومن زعم أنَّها الطاعة فقد أخطأ**، لأنَّ جماعةً عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام، وما أطاعوهم، ولكن في الشرع صارت اسمًا لكلِّ طاعةٍ لله أُدِّيت له على وجه التذلُّل والنهاية في التعظيم» [البينة: ٥].

قلت: يظهر لي أن الشيخ المليباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجَّح الاقتصار في معنى العبادة على نهاية التعظيم؛ سدًّا لذريعة المخالفين في تفسيرها بالطاعة بدعوى أن أصل معناها في اللغة: التذلل والخضوع. وأنت ترى أن الرازيَّ ردَّ هذه الدعوى رغم أنَّه ذكر أنَّ أصل الكلمة يرجع إلى التذلُّل، وذلك لأن هذا المعنى حقيقة لغوية، أما في الشرع فهي تذلُّل وخضوع مخصوص، فانتفى الترادف بين العبادة والطاعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة: أصل معناها الذلُّ، يقال: طريق معبَّدٌ إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذلِّ، ومعنى الحبِّ، فهي تتضمن غاية الذلِّ لله بغاية المحبة له... ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحبُّ ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في

عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كلِّ شيءٍ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيءٍ، بل لا يستحقُّ المحبةَ والذُّلَّ التَّامَّ إلا الله. وكلُّ ما أُحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عُظِّم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلًا»(١).

٢ ـ أن التفصيل الذي ذكره في التفريق بين «عَبَدَ» المتعدِّي بفتح الباء وعَبُدَ اللازم بضمِّ الباء؛ لم يذكره أئمة اللغة، بل كلامهم يدلُّ على أن مردَّ الكلمة في الاستعمالين إلى أصل واحد، وهو ـ كما بيَّنه ابن فارس ـ: «يدلُّ على لين وذلٍّ»، ونقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠) قوله: «يقال: هذا عبدٌ بيِّن العُبُودَة. ولم نسمعهم يشتقُّون منه فعلًا، ولو اشتقَّ لقيل: عبُدَ، أي صار عبدًا، وأقرَّ بالعُبُودة، ولكن أُميتَ منه الفعلُ فلم يُستعمل. قال: وأمَّا عبَد يعبُد عبادةً؛ فلا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى. يقال منه: عبد يعبد عبادة، وتعبد يتعبَّد تعبدًا. فالمتعبَّد: المتفرِّد بالعبادة. واستعبدت فلانًا: اتخذته عبدًا. وأما عبد في معنى خدم مولاه فلا يقال عبده، ولا يقال يعبد مولاه. وتعبد فلان فلانًا، إذا صيَّره كالعبد له وإن كان حرًّا»(٢).

وقال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: «وإنَّما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نَخشع ونذلُّ ونستكينُ، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونَخاف، وإن كان الرَّجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلةٍ، لأنَّ العبودية عند جميع العرب أصلُها الذلَّة، وأنَّها تُسمِّي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام،

---

(١) «العبودية» (مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٥٢).
(٢) «مقاييس اللغة» ٤/ ٢٠٥، وكلام الخليل في كتابه: «العين» ٢/ ٤٨.

وذلَّلته السابلة: معبَّدًا. ومن ذلك قولُ طَرَفَة بن العَبْد:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجياتٍ وأَتْبَعت وَظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالموْر: الطريق. وبالمعبَّد: المذلَّل الموطوء. ومن ذلك قيل للبعير المذلَّل بالركوب في الحوائج: معبَّد. ومنه سُمِّي العبْدُ عبدًا لذِلَّته لمولاه. والشواهد على ذلك من أشعار العرب وكلامها أكثرُ من أن تُحصى»[١].

والحاصل أن «عَبَدَ» بمعنى العبادة، و«عَبُدَ» بمعنى الرِّقِّ؛ اشتقاقهما من أصل واحد، والقدر المشترك بينهما هو الذلة والخضوع، واختلاف تصريفهما لا ينفي كونهما على معنًى واحد، لهذا قال أبو حيَّان الأندلسيُّ: «العبادة: التذلل، وتعدِّيه بالتشديد مغايرٌ لتعديه بالتخفيف، نحو: عبَّدتُ الرجلَ ذلَّلته، وعبَدت الله ذَلَلْتُ له»[٢]. وبسبب هذا الاشتراك المعنوي قال رسول الله ﷺ: «**لا يقلْ أحدكم: اسْقِ ربَّك، أطعم ربَّك، وضِّئ ربك! ولا يقل أحدكم: ربِّي! وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي! وليقل: فتاي، فتاتي، غلامي!**»[٣]. وفي لفظ آخر: «**لا يقولنَّ أحدكم: عبدي! فكلُّكم عبيد الله، ولكن ليقل: فتاي. ولا يقل العبد: ربِّي! ولكن ليقل: سيدي**»[٤]. فموجب هذا النهي ما في

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ١/ ١٥٩.
(٢) «البحر المحيط» ١/ ٤١.
(٣) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

اللفظ من الاشتراك، فأمر ﷺ باجتناب استعماله لغير العبادة، تأدُّبًا مع الله تعالى، ولأنها صارت شعارًا لأهل التوحيد، لهذا قال ابن بطَّال: «لأن قول الرجل: عبدي، وأمتي، يشترك فيهما الخالق والمخلوق، فيقال: عبد الله، وأمة الله، فكره ذلك لاشتراك اللفظ»[1].

المسألة الثانية: تقييد العبادة بأنها: «التعظيم على أساس قوَّةٍ وراء الأسباب»، كما نقله عن الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله؛ يجبُ حمله على أنَّه تصوُّرٌ لما في نفس الأمر، أي: أن العاقل لا يعبد شيئًا، ولا يتذلَّل له ويخضع؛ إلَّا إن اعتقد فيه قوةً وراء الأسباب، أو سلطة عُليا، أو قدرة على الفعل والتصرف والتأثير. هذا يعلمُ بضرورة العقل، لكنَّ هذا الاعتقاد ليس شرطًا لعدِّ الفعل عبادة، وعدِّ الفاعل عابدًا، وعدِّ المفعول معبودًا، فإنَّ الحكم الشرعيَّ يقضي أنَّ كلَّ من تقرَّب إلى غير الله تعالى بعبادةٍ؛ فقد عبده، وأشرك بالله العليِّ العظيم؛ سواء اعتقد في المتقرَّب إليه الربوبيَّة، أو لم يعتقد. لهذا أعقب المليباري كلام محمد رشيد رضا باستدراك مهمٍّ، فقال: «ولكن بقي شيء جدير بالذِّكر؛ ذلك أن هذا البيان لا ينطبق على كل عبادة مأمورة ومنهية كلتيهما، فعبادة الصنم ليست على مثل ما ذكره من استشعار القلب عظمةً للصنم لا يعرف منشأها إلى آخر ما ذكره، وإنما الصنم وضع تذكارًا لكبير معظَّمٍ، ومرجوٍّ منه أن يشفع عند الله بزعمهم فالإنسان

(١) «شرح صحيح البخاري» ٧/ ٦٨.

في الواقع يعبد الصنم، ويعبد من وضع الصنم على اسمه ويعبد الله، فالآلهة عنده ثلاثة، وكذلك شأن عابد الصليب وعابد القبر؛ كل هؤلاء يعظِّمون الصنم والصليب والقبر مُقْبِلِين بقلوبهم إلى ما وراءها من الأرواح العالية المقربة عند الله بزعمهم، وإن أول ما وقع في الأرض من عبادة غير الله هو ما حدث في قوم نوح عليه السلام، عبدوا ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وهم رجال صالحون محبوبون مكرمون عند الناس، تأسَّفوا على موتهم أسفًا شديدًا فأوحى إليهم الشيطان «أن اصنعوا لهم صورًا ليخفَّ أسفكم بالنظر إليها»، ففعلوا، ثم لم يزل هذا المرض القلبي يشتد شيئًا فشيئًا وانتهى إلى دَوْرِ العبادة، فلم يكن هؤلاء الناس يستشعرون في آلهتهم عظمةً لا يعرفون منشأها، ولا سلطةً لا يدركون كنهها إلى آخر ما ذكره الأستاذ رشيد رضا، **وإنما الواقع أن الناس كانوا يعظمونهم على اعتقاد أنهم مقرَّبون عند الله يشفعون لهم، والعظمة والسلطة وما إلى ذلك كلُّها لله وحدَه باتِّفاق جميع العقلاء في الأرض، والفساد كله جاء من عقيدة الشفاعة المفتراة**». ثم بيَّن المليباريُّ أنَّ شيخه العلامة أبا عبد الصمد محمد بن محيي الدين الكاتب (ت: ١٤٣١) رحمه الله، هو الذي أرشده إلى هذا الاستدراك الدَّقيق.

قلتُ: وجه هذا الاستدراك ـ وهو في غاية الأهمية ـ سدُّ الذريعة لاستغلال كلام الشيخ محمد رشيد رضا على غير وجهه، بدعوى أن لازمه: أن من عبد غير الله من غير اعتقاد فلا يعدُّ عمله شركًا، وهذا جارٍ على أقوال غلاة الجهمية والمرجئة الذين

يشترطون الاعتقاد القلبي والاستحلال في إتيان الشرك الأكبر.

ما ذكَرْتُه من حمل كلام محمد رشيد رضا على أنه تصوُّرٌ للماهيَّة في الذِّهن، وليس حكمًا على الفعل في الخارج؛ يؤيِّدهُ كلام آخر له نقله عن شيخه محمد عبده على وجه الموافقة، فقال: «قال: فالشرك أنواع وضروب، أدناها: ما يتبادر إلى أذهان عامة المسلمين أنه العبادة لغير الله كالركوع والسجود له. وأشدُّها وأقواها: ما سماه الله دعاء واستشفاعًا، وهو التوسل بهم إلى الله وتوسيطهم بينهم وبينه تعالى، فالقرآن ناطق بهذا، وهو المشهور في كتب السير والتاريخ، فهذا المعنى هو أشدُّ أنواع الشرك، وأقوى مظاهره التي يتجلى فيها معناه أتمَّ التجلِّي، وهو الذي لا ينفع معه صلاة ولا صيام ولا عبادة أخرى. ثم ذَكَرَ أن هذا الشرك قد فشا في المسلمين اليوم، وأورد شواهد على ذلك عن المعتقدين الغالين في البدوي ـ شيخ العرب ـ، والدسوقي وغيرهما، لا تحتمل التأويل، وبيَّنَ أن الذين يؤوِّلون لأمثال هؤلاء إنما يتكلَّفون الاعتذار لهم لزحزحتهم عن شركٍ جليٍّ واضحٍ إلى شركٍ أقلَّ منه جلاءً ووضوحًا، **ولكنَّه شرك ظاهر على كلِّ حال، وليس هو من الشرك الخفي** الذي وردت الأحاديث بالاستعاذة منه، الذي لا يكاد يسلَم منه إلا الصِّدِّيقون، ومنه أن يعمل المؤمنُ العمل الصالح من العبادة لله تعالى ويحب أن يمدح عليه أو يتلذَّذ بالمدح عليه مثلًا»(١).

قلت: فالشرك عندهما على ثلاث مراتب:

(١) «تفسير المنار» [النساء: ٣٦] ٥/ ٨٣.

الأول: الشرك الجلي الواضح، وهو الذي معه اعتقاد في الشفعاء والوسائط.

الثاني: الشرك الظاهر ـ وهو أقل جلاء ووضوحًا من الأول ـ وهو ما لا يكون معه اعتقاد.

الثالث: الشرك الخفي، وهو الشرك الأصغر.

وقد جزما أن النوع الثاني ليس من النوع الثالث، فهو إذن من النوع الأول، وهو الشرك الأكبر، والحكم فيه على ظاهر الحال من إتيان الشرك وممارسته.

ويؤيده ـ أيضًا ـ قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]: «ومعنى قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائنين من دون الله، أو حال كونكم متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة. فهذا التعبير يصْدُق باتخاذ إلهٍ أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، فإن عبادة الشريك المتَّخذ غير عبادة الله خالق السماوات والأرض، **سواء اعتقد المشركُ أن هذا المتَّخَذَ ينفع ويضرُّ بالاستقلال ـ وهو نادر ـ، أو اعتقد أنه ينفع ويضرُّ بإقدار الله إيَّاه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله**، أي: بحمله تعالى ـ بما له من التأثير والكرامة ـ على النفع والضر، وهو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن

دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، إلخ... وقلَّما يوجد في متعلِّمي الحضَر من يتَّخذ إلهًا غير الله متجاوزًا بعبادته الإيمانَ بالله الذي هو خالق الكون ومدبِّره، فإنَّ الإيمانَ الفطريَّ المغروس في غرائز البشر هو أنَّ تدبيرَ الكون ـ كلَّه ـ صادرٌ عن قوة غيبية لا يُدرِك أحدٌ كنهها، فالموحِّدون أتباعُ الرسل يتوجهون بعباداتهم القولية والفعلية إلى صاحب هذه القوة الغيبية وحدَه، معتقدين أنه هو الفاعلُ المطلق وحده، وإن كان فعل ينسب إلى غيره فإنما ينسب إليه كذبًا، أو على أنه فعله بإقدار الله إياه عليه، وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه التي قام بها نظام الأسباب والمسبَّبات بمشيئته وحكمته، والمشركون يتوجَّهون تارةً إليه، وتارةً إلى بعض ما يستكبرون خصائصَه من خلقه؛ كالشمس والنجم، وبعض مواليد الأرض، وتارةً يتوجَّهون إليهما معًا، فيجعلون الثاني وسيلةً إلى الأول. **ومن يشعر بسلطةٍ غيبيةٍ تتجلَّى له في بعض الخلق، فهو يخشى ضَرَّها، ويرجو نفعَها، ولا يمتدُّ نظر عقله، ولا شعور قلبه إلى سلطةٍ فوقها، ولا يتفكَّر في خلق هذه الأكوان؛ فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، فلا يُعدُّ من العقلاء المستعدِّين لفهم الشرائع وحقائق الدِّين، على أنه يصدُق عليه أنه اتخذ إلهًا من دون الله**، ولكن هذا النوع من الاتخاذ غير مراد هنا؛ لأن الذين شرعوا للناس عبادةَ المسيح وأمَّه كانوا من شعوب مرتقية حتَّى في وثنيَّتها، ولها فلسفةٌ دقيقةٌ فيها، وهم اليونان والرومان، وبعض اليهود المطَّلعين على تلك الفلسفة جدَّ الاطلاع.

وجملة القول: أنَّ اتخاذ إلٰه من دون الله يُراد به عبادة غيره؛ سواء

كانت خالصةً لغيره، أو شركة بينه وبين غيره، ولو بدعاء غيره والتوجُّه إليه ليكون واسطة عنده: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]»[١].

ويؤيِّده ـ أيضًا ـ قوله في تفسير قصَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: «ظاهر ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنَّ قومه كانوا يتَّخذون الأصنامَ آلهةً لا أربابًا، ويتَّخذون الكواكب أربابًا آلهةً، فالإله هو المعبود، فكلٌّ من عبد شيئًا فقد اتَّخذه إلهًا»[٢].

ويؤيده ـ أيضًا ـ قوله في تفسير: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الأنعام]: «وحكمة الاهتمام بهذه المسألة، وقرنها بمسائل العقائد، هو أن مشركي العرب ـ وغيرهم من أهل الملل ـ جعلوا الذبائح من أمور العبادات، بل نَظَمُوها في سِلْك أصول الدين والاعتقادات، **فصاروا يتعبَّدون بذبح الذبائح لآلهتهم، ومن قدَّسوا من رجال دينهم، ويُهِلُّون لهم بها عند ذبحها، وهذا شركٌ بالله، لأنه عبادةٌ تُوَجَّه إلى غيره؛ سواء أَسُمِّيَ ذلك الغيرُ إلهًا أو معبودًا أم لا.** وقد غفل عن هذا بعضُ كبار المفسرين، فلم يهتدِ إليه بذكائه وعلمه، ولم يروه عن غيره، فاستشكل هو ومن تبعه المسألةَ وقالوا: إن المشركين لم يكونوا يحرِّمون ما ذُكر اسم الله عليه، ولا يمتنعون من أكله، ولكنهم كانوا يأكلون الميتة أيضًا،

(١) «تفسير المنار» ٧/ ٢٦١-٢٦٢.
(٢) «تفسير المنار» [الأنعام: ٧٥-٨٠] ٧/ ٥٦٩.

فكيف نازعهم في المتَّفق عليه وسكت عن المختلف فيه؟! وأجابوا عن السؤال باحتمال أنهم كانوا يحرمون المذكَّاة، وبجواز أن يكون المراد بما ذُكر اسم الله عليه الاقتصار على المذكَّى دون غيره، فيكون بمعنى تحريم الميتة. وكلٌّ من الوجهين باطلٌ، ولا محلَّ له هنا كما علمتَ، وقد بيَّنا من قبل أن سبب غفلة أذكياء المفسرين عن أمثال هذه المسائل اقتصارُهم في أخذ التفسير على الروايات المأثورة، ومدلول الألفاظ في اللغة، أو في عرف الفقهاء والأصوليين والمتكلمين الذي حدث بعد نزول القرآن بزمن طويل، ولا يغني شيءٌ من ذلك عن الاستعانة على فهم الآيات الواردة في شؤون البشر بمعرفة الملل والنحل، وتاريخ أهلها، وما كانوا عليه في عصر التنزيل. وقد كان من أثر تقصير المفسرين وعلماء العقائد والأحكام في أهمِّ ما يتوقف عليه فهم المراد من أمثال هذه الآيات؛ أن وقع كثير من المسلمين فيما كان عليه أولئك الضالُّون من مشركي العرب وغيرهم، حتى الذبح لبعض الصالحين، وتسييب السوائب لهم، كعجل البدويِّ المشهور أمرُه في أرياف مصر، ولما سرَتْ هذه الضلالة إلى المسلمين ذكر الفقهاء حكمها، ومتى تكون كفرًا.

وجملة القول: أن مسألة الذبائح من مسائل العبادات التي كان يتقرَّب بها إلى الله تعالى، ثم صاروا في عهد الوثنية يتقرَّبون بها إلى غيره، وذلك شركٌ صريحٌ، وهذا هو الوجه لذكرها في هذه السورة بين مسائل الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد»[(١)].

(١) «تفسير المنار» ٨/ ١٧-١٨.

وبؤيِّده ـ أيضًا ـ قوله في تفسير: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام]: «ومهبُّ هذه الأهواء ما كان سبب الوثنية وأصلها، وهو أنه كان في القوم الذين أرسل الله إليهم نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ رجالٌ صالحون على دين الفطرة القديم، فلما ماتوا وضعوا لهم أنصابًا تمثلهم، ليتذكروهم بها، ويقتدوا بهم، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم، ثم جاء من بعدهم أناسٌ جهلوا حكمةَ وضعهم لها، وإنما حفظوا عنهم تعظيمها وتكريمها، والتبرك بها تدينًا وتوسلًا إلى الله تعالى، فكان ذلك عبادة لها. وتسلسل في الأمم بعدهم، فعلى هذا الأصل الذي بنيت عليه الوثنية ـ كما في البخاري عن ابن عباس ـ يَبْني المضلُّون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التي عبدوا بها غير الله تعالى، كالتوسل به، ودعائه، وطلب الشفاعة منه، وذبح القرابين باسمه، والطواف حول تمثاله، أو قبره، والتمسح بأركانهما، وكل ذلك شرك في العبادة؛ شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقريب بهم إليه، وغير ذلك. وقد راجت هذه الشبهات الوثنية في أهل الكتب الإلهية بالأهواء الجهلية، وأوَّلوا لأجلها النصوص القطعية، **وأجاز بعض منتحلي العلم الديني منهم لأنفسهم وأتباعهم من ذلك ما يعدونه كفرًا وشركًا من غيرهم، إما بإنكار تسميته عبادةً، أو بدعوى أن العبادة التي يتوجَّه بها إلى غير الله تعالى لأجل جعله واسطة ووسيلة إليه؛ لا تعدُّ شركًا به، وما الشركُ في العبادة إلا هذا، ولو وجهت العبادة إلى هؤلاء الوسطاء لذواتهم طلبًا للنفع أو دفع الضرر منهم أنفسهم ـ وهذا واقع أيضًا ـ لكانت توحيدًا لعبادة**

هؤلاء لا إشراكًا لهم مع الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، والمخلص لله: من خلصت عبادته من التوجه إلى غيره معه، والحنيف: من كان مائلًا عن غيره إليه، فما كلُّ من يؤمن بالله موحدٌ له: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف]»[١].

قال عبد الحق التركماني عفا الله عنه: أطلتُ في هذا الموضع لأهميَّته؛ فهو متعلِّقٌ بأصل الدِّين الأعظم: إخلاص العبادة لله تعالى اعتقادًا وقولًا وعملًا، والبراءة من الشرك وأهله، ولأنَّ عُبَّاد القبور ـ المنتسبين إلى الإسلام ـ ينفون عن أنفسهم الشِّرك بزعمهم أنهم لا يعتقدون في تلك القبور وأصحابها ما يعتقدون في الله ﷻ من الربوبية والتأثير والتصرُّف، وقد نبتتْ في السنوات الأخيرة نابتةٌ ممن تربَّوا في محاضِن التفسير السياسي للإسلام، ليسوا من القبوريِّين، لكنَّهم يريدون أن يهوِّنوا من موبقاتهم التي هي «**شرك ظاهر على كلِّ حال**» ـ كما قال محمد عبده ومحمد رشيد رضا ـ، فيقررون: «حصر شركِ العبادة في الإخلال بالربوبية»، ولهم في ذلك مآربُ أخرى غير ما في ظاهر أمرهم من الخوض في مسائل الاعتقاد، سنتصدَّى لشرح قولهم وإبطاله في بحث مستقلٍّ، إن شاء الله تعالى.

المسألة الثالثة: مفهوم الدعاء: توسَّع المؤلف رحمه الله في شرح

(١) «تفسير المنار» ٨/١٩-٢٠. وراجع في تفسير آية سورة يوسف بحث الشيخ الدكتور فهد بن سليمان الفهيد ـ أثابه الله ـ: «إيمان المشركين وتصديقهم بالله في ضوء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾».

مفهوم الدعاء حتى جعل مدار العبادة كلِّها على الدعاء، فحقيقته التوجه إلى الله تعالى، وتعلق القلب به، والإخلاص له، والاستعانة به، والتوكل عليه، وما ذكره صحيح، شامل لنوعي الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة. ثم إن هذا الدعاء من لوازمه التذلُّل والخضوع، وبهذا اللازم يظهر كون الدعاء هو العبادة، فإن الداعي لا يدعو على وجه التعبُّد إلا وهو مقرٌّ بحاجته وفقره، ذليل بضعفه وعجزه، لهذا كان الاستعلاء والاستكبار من صفات المعرضين عن عبادة الله ودعائه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام]. وقد أخبر الله تعالى عن المشركين أنَّهم يتذللون ويخضعون في حال ضعفهم وعجزهم، فقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام]، والضراعة هي التذلل والخضوع وشدَّة الفقر إلى الشيء، والحاجة(١). وفي دعائهم «خُفية» دليل على ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن معنى الدعاء يرجع في حقيقته إلى ما يستكنُّ في القلب من اعتقاد وقصد وتوجُّه، لهذا أمرنا الله تعالى بذكره ودعائه على هذه الصفة المحققة للعبودية له بالحب والخوف والرجاء، فقال

---

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي: ٢/ ٣٩، ١٢٩.

تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما التوسل والتوجه إلى الله وسؤاله بالأعمال الصالحة التي أمر بها، كدعاء الثلاثة الذين آووا إلى الغار بأعمالهم الصالحة، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم؛ فهذا مما لا نزاع فيه، بل هذا من الوسيلة التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فإن ابتغاء الوسيلة إليه، هو طلب من يتوسل به، أي يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه، سواء كان على وجه العبادة والطاعة وامتثال الأمر، أو كان على وجه السؤال له، والاستعاذة به، رغبة إليه في جلب المنافع ودفع المضار. ولفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا: الدعاء بمعنى العبادة، أو الدعاء بمعنى المسألة، وإن كان كل منهما يستلزم الآخر، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته، وتفريج كرباته، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب: من الرزق والنصر والعافية مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ ومعرفته ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرًا عنده من تلك الحاجة التي همته. وهذا من رحمة الله

بعباده، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العليَّة الدينية. وقد يفعل العبد ما أمر به ابتداء لأجل العبادة لله، والطاعة له، ولما عنده من محبته والإنابة إليه، وخشيته، وامتثال أمره، وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أهل السنن أبو داود وغيره: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين: «ادعوني» أي اعبدوني وأطيعوا أمري؛ أستجيب دعاءكم. وقيل: سلوني أعطكم، وكلا المعنيين حقٌّ. وفي «الصحيحين» في قول النبي ﷺ في حديث النزول: «**ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة حين يبقى ثُلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له. حتى يطلع الفجر**». فذكر أولًا: إجابته الدعاء، ثم ذكر: إعطاء السائل، والمغفرة للمستغفر، فهذا جلب المنفعة، وهذا دفع المضرة، وكلاهما مقصود الداعي المجاب»(١).

المسألة الرابعة: تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة: أشار الشيخ المليباري إلى تعريف ابن تيمية للعبادة الذي اشتهر بين الناس، واستحسنه أهل العلم، وتناقلوه، خاصة في العصر الحديث، وقال عنه: «صحيح بلا شكٍّ أن جميع ما يحبه الله

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» **٢/ ٣١٢**. وراجع: «جلاء الأفهام» لابن القيم، ص: ١٥٥.

ويرضاه عباداتٌ، فهذا بيان عبادة الله الخاصة المأمور بها»، ثم اعترض على طَرد هذا التعريف وجعله معيارًا للعبادة.

قلتُ: اعتراض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ غير وجيه، وفيه تكلُّف ظاهر، والأمر أهون مما صوَّره، فإن العبادة تعرَّف من جهة ماهيَّتها، ومن جهة أفرادها، وهذا الأخير هو ما ذكره ابن تيمية، وقصد ـ كما أقرَّ الشيخ نفسه ـ العبادة الشرعية الصحيحة المقبولة عند الله تعالى، وبه ابتدأ رسالته في «العبوديَّة»، ثم أعقبه بتعريف ماهيَّتها، وقد نقلناه فيما سبق، وفيه: «العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له». وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتبه، من ذلك قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتَّصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحبِّ، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن: غاية الحبِّ بغاية الذل»(١).

يبدو أن الذي حمل الشيخ على اعتراضه ما رآه من استدلال الحركيين على تفسير العبادة بالعمل للدنيا بكلام ابن تيمية، حيث أدخل جميع الأعمال الصالحة في مفهوم العبادة، فيبنون على ذلك أن العبادة في الإسلام تستوعب جميع نشاطات السلوك الإنساني،

---

(١) «الفتاوى الكبرى» ٥/ ٢٢٧، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٢٤٩، ٨/ ٣٧٨، «اقتضاء الصراط المستقيم» ٢/ ٣٨٧، «النبوات» ١/ ٢٨٥، «جامع الرسائل» ٢/ ٨٦، ١٩٦، ٢١٩، «جامع المسائل» ٤/ ٤٠، ٦/ ١٨٨.

ويقحمون فيها ما يسمونه بـ: «عمارة الأرض»، ثم يجعلونها هي الغاية من العبادة، إما أصالةً والشعائر التعبدية تبع لها ـ كما سبق عن المودودي وسيد قطب ـ، وإما إشراكًا بها، فيجعلونها غايتين: العبادة وعمارة الأرض. ونادرًا ما تجد بينهم من يصرِّح بأنها غاية ثانوية تدخل في مقصود العبادة بالتبعية لا بالأصالة. ومهما يكن؛ فإن لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من التحقيق والبيان لحقيقة العبادة وماهيتها، وشروطها، وتمييز صحيحها عن باطلها، ومقبولها عن مردودها، وتحرير القول في غايتها ومقصدها، والرد على من يجعلها وسيلة لأغراض مادية ودنيوية، والتحذير من مذاهب الباطنية وغلاة الفلاسفة في ذلك؛ ما هو كفيل بإبطال الأقوال الشاذة المبتدعة.

(٦)

القاسم المشترك بين ردود ومناقشات وحيد الدين خان والنَّدوي والمليباري ـ ورابعهم: ابن باز، وهو أرسخهم علمًا، وأرفعهم قدرًا، وأعظمهم شأنًا ـ تحرِّي الحقِّ والصواب، وحُسن الخطاب، ولزوم الآداب، والقيام بالعدل والإنصاف، ومجانبة البغي والإجحاف، ذلك لأنَّ المقصود هو القيام بما أوجبه الله تعالى على أهل العلم من «بيان الحقِّ ونصرته، ورحمة الخلق وهدايتهم»، ولا يتمُّ هذا إلا بحراسة العقيدة، وصيانة الشريعة، ونصيحة المسلمين ـ خاصتهم وعامتهم ـ، والأخذ بأيديهم إلى ما تدلُّ عليه دلائل الحقِّ من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولا شكَّ أن هذا يقتضي ـ ضرورة، ولا بدَّ ـ التعرُّض

إلى أعيان أصحاب المقالات؛ بمناقشة أقوالهم، ونقد اجتهاداتهم وآرائهم، وتنزيل الأحكام عليها وعليهم بما تقتضيه القاعدة الشرعية: «نحن نحكم بالظاهر والله يتولَّى السرائر». لكن الناصح مهما كان قائمًا بالعدل، منصفًا في الحكم، أديبًا في القول؛ فلا بدَّ أن يكون في أتباع أولئك الأعيان متعصبةٌ من المريدين والمتحزِّبين، فيحملهم التقليد والهوى على قذف الناصح بكلِّ قبيحة، واتهامه في نيته وقصده، وفي ديانته واستقامته وولائه للإسلام وأهله، فالواجب الصبرُ والاحتساب، والامتثال لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة]؛ جعلنا الله تعالى من أهل هذه الصفة في الدنيا والآخرة، بمنِّه وكرمه.

هذا آخر ما أحببت إيراده في هذه العجالة، والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه
عبد الحق التركماني
ليستر في المحرَّم الحرام ١٤٣٧

نبذة عن سيرة
الشيخ عمر بن أحمد المليباري رحمه الله
(١٣٣٥-١٤٢٠هـ/ ١٩١٧-٢٠٠٠م)

تشرفت الهند بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وكان لـ: «مالابار» أو «مَليبار» (Malabar) في ساحل شرق الهند (لاتصالها الوثيق بالجزيرة العربية منذ أقدم العصور بفضل موانيها) شرف السبق للتعرف على الإسلام واعتناقه حتى قبل دخول الجيوش الإسلامية الهند. وأقيم أول مسجد في كودنجالور (Kodungallur) في عهد الخليفة الراشد الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولد الشيخ عمر أحمد المليباري في كيرالا ـ قرية «فاليانكود» (Veliancode)، مقاطعة «مالابورام» (Malappuram) ـ جنوب الهند في سنة (١٣٣٥/ ١٩١٧) في بيئة علمية محافظة.

تدرج في الحلقات الدراسية المنتظمة في المساجد من بلدة إلى أخرى وكانت هذه الحلقات تتسم بطابع التقليد المذهبي الأعمى الممزوج بالبدع والخرافات.

وقد هداه الله في عام (١٩٤١م) إلى العالم السلفي الجليل، محمد الكاتب الشهير بـ«كيه. أم. مولوي تيرور نغادي»

(Tirurangadi)، حيث تتلمذ عليه ونشأ عنده على التوحيد الخالص والسنة المشرفة.

وفي عام (١٣٦٢) عين خطيبًا في مسجد في وسط مدينة كاليكوت، حيث اشتهرت خطبه وذاع صيته على مستوى ولاية كيرالا، وعرف مجاهدًا في سبيل الله بالدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك، والالتزام بالعمل بالسنة ورد البدع والخرافات.

وهو من الأعضاء المؤسسين لندوة المجاهدين بكيرالا سنة (١٩٥٠م) مع كي ايم مولوي وغيره، وهي تعتبر أهم منظمة سلفية تنظيمًا وإدارة في كيرالا بل في دولة الهند كلها.

نشر أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة المحلية المعروفة بـ: «مليالم» في عام (١٣٧٤) تحت إشراف «كيه. أم. مولوي».

سافر إلى بلاد الحرمين الشريفين قاصدًا للحج. ثم التحق بكلية اللغة العربية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتخرج فيها عام (١٣٧٨)، وكان من زملائه الدكتور عبد الله بن عبد الله الزايد (ت: ١٤٣٣) ـ نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقًا ـ، والشيخ عبد الصمد الكاتب (العالم الفرضي المعروف بالمدينة) والشيخ سعد الدين وغيرهم. وقد توطدت علاقته بسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله حين إقامته في الرياض. ثم رجع إلى وطنه داعيًا إلى الله.

في عام (١٣٩٠/ ١٩٧١) أسَّس مجلة «سلسبيل» الشهرية باللغة المحلية، التي كانت تهتم بالدعوة إلى العقيدة الصافية من أكدار

الشرك والوثنية والإلحاد والتصدي للتيارات الفكرية الهدامة، من الدهرية والقاديانية والتبشيرية من جهةٍ، والمودودية وغيرها من جهة أخرى. كان شعار المجلة: «العبرة بالدليل لا بالقائل». ومما تميزت به مجلة «سلسبيل» من الميزات بين المجلات: هو نشرها لمقالات المخالفين على علاتها مع الرد عليها ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

في أواخر عام (١٣٩٠)، انتقل الشيخ عمر إلى مدينة «كوشين» واتخذها مقَرًّا له، الأمر الذي جعله ذا تأثير في نشر الدعوة السلفية في المناطق الجنوبية من ولاية كيرالا مع إخوانه هناك.

من آثاره الباقية في مدينة «كوشين» مسجد «سلسبيل» الذي هو مصدر إشعاع دعوي حتى الآن، وكان الشيخ يستغل منبره لبيان كل ما يستجد من الأمور في مساحة الدعوة، والرد على كل ما يمس بجانب العقيدة والمنهج مع إلقاء الخطب والمحاضرات العامة، وطبع كتب ورسائل ونشرات مفيدة نافعة للخاصة والعامة من الناس.

انتخب رئيس جمعية كيرالا سنة (١٩٧٩م) نظرًا إلى علمه وفضله وجهوده في الدعوة إلى الله. عُيِّن مبعوثًا من قبل دار الإفتاء بالرياض في مجال الدعوة إلى الله في ولاية كيرالا، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يوفد منها إلى الحرمين الشريفين في موسم الحجِّ لتوعية الحجاج لسنوات عديدة متتالية، حيث كان يلتقي بسماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ وينهل من علمه وفضله.

اشتغل الشيخ بالدعوة والإرشاد، وترك وراءه جمًّا غفيرًا من تلامذته، وألَّف كتبًا ورسائل كثيرة في لغته المحلية من أهمها: ترجمة وتفسير القرآن الكريم، وترجمة العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكتاب في الحج والعمرة وغيرها.

خلف ثمانية أولاد بمن فيهم بنتان، من المعروفين منهم الشيخ: مبارك بن عمر المليباري (خريج كلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية بالمدينة) وهو الآن يقوم بتحقيق تفسير والده رحمه الله.

توفي الشيخ عمر المليباري في ١٨ ذي القعدة ١٤٢٠، الموافق ٢٤ فبراير ٢٠٠٠، عن عمر يناهز (٨٤) سنة، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هكذا عاش الشيخ حياة حافلة بالدعوة والإرشاد، نابضة بالحركة والنشاط وترى بصماته الدعوية واضحة في ولايته، وهو يُذكر بالخير في المجالس والمحافل لأجل جهوده في مجال الدعوة إلى الله تعالى على منهج السلف الصالح.

اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه.

كتبه:
مبارك بن عمر المليباري
راجعه وزاد عليه:
صلاح الدين مقبول أحمد

معنى لا إلٰه إلا الله

لسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فقد اطلعت على الكلمة التي كتبها أخونا في الله العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري في معنى لا إلٰه إلا الله، وقد تأملت ما أوضحه فضيلته في أقوال الفرق الثلاث في معناها. وهذا بيانها:

الأول: لا معبود بحق إلا الله.

الثاني: لا مطاع بحق إلا الله.

الثالث: لا ربَّ إلا الله.

والصواب هو الأول كما أوضحه فضيلته، وهو الذي دل عليه كتاب الله سبحانه في مواضع من القرآن الكريم مثل قوله سبحانه:

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» تأليف: الفقير إلى عفو ربِّه عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن باز، جمع وإشراف: د. محمد بن سعد الشويعر، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: (١٤٠٨)، ٢/ ٥-٧.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو الذي فهمه المشركون من هذه الكلمة حين دعاهم النبي ﷺ إليها، وقال: «**يا قومي؛ قولوا: لا إلٰه إلا الله؛ تفلحوا**»[١]. فأنكروا ذلك، واستكبروا في قبوله، لأنهم فهموا أن ذلك يخالف ما عليه آباؤهم من عبادة الأصنام والأشجار والأحجار، وتأليههم لها، كما ذكر الله ﷻ في قوله سبحانه في سورة ص: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

وقال ﷻ في سورة الصافات عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾. فعُلم من ذلك أنهم فهموا معناها بأنها تبطل آلهتهم وتوجب تخصيص العبادة لله وحده، ولهذا لما أسلم من أسلم منهم، ترك ما هو عليه من الشرك، وأخلص العبادة لله وحده، ولو كان معناها: «لا ربَّ إلا الله»، أو: «لا مطاع إلا الله»؛ لما أنكروا هذه الكلمة، فإنهم يعلمون أن الله ربهم وخالقهم، وأن طاعته واجبة عليهم، فيما علموا أنه من عنده سبحانه، ولكنهم كانوا

(١) حديث صحيح، سيأتي تخريجه.

يعتقدون أن عبادة الأصنام والأنبياء، والملائكة والصالحين، والأشجار ونحو ذلك على وجه الاستشفاع بها إلى الله، ورجاء أن تقربهم إليه زلفى كما ذكر الله ذلك عنهم سبحانه في قوله الكريم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فأبطل الله ذلك ورده عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، وفي قوله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر]. والمعنى أنهم يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فرد الله عليهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر]. فبين سبحانه بذلك أنهم كاذبون في زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى، كافرون بهذا العمل، والآيات في هذا المعنى كثيرة. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

من جوابي لفضيلة الشيخ: أبي الأعلى المودودي فيما يتعلق بالفرق بين العبادة والطاعة[(١)]

كان أبو الأعلى المودودي قد بعث إليَّ برسالة رقمها (١٥٢٦)، وتاريخ: ٢/ ٤/ ١٣٩٢هـ[(٢)]، شرح فيها حالَه وحال الأستاذ طفيل الذي خلف فضيلته في إمرة الجماعة الإسلامية، وقد أجبته برسالة عندما كنت رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في نفس العام.. ومنها:

قال لي بعض الإخوان المقيمين في البلاد من أهل مليبار عن فضيلتكم أَنكم ترون أن العبادة تُفسَّر بالطاعة، وأن كل من أطاع أحدًا فقد عبده، كما تفسَّر بالرقِّ والتأله. وكتب إليَّ الشيخ عمر بن أحمد المليباري ـ أي صاحب مجلة السلسبيل ـ في هذا الموضوع جازمًا بما ذُكر عن فضيلتكم، وعن الجماعة، وأرسل إليَّ نسخةً من استفتاءٍ تعميميٍّ في هذه المسألة، أرسل إليكم نسخة منه.

---

(١) هذا العنوان وما تحته من «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، ٥/ ١٧-١٨، وانظر: «الرسائل المتبادلة بين الشيخ ابن باز والعلماء» إعداد محمد بن موسى الموسى، ومحمد بن إبراهيم الحمد ص٢٩٥-٣٠١. ط. دار ابن خزيمة.

(٢) في الرسائل المتبادلة: «٢/ ٤/ ١٣٩٣هـ».

وقد استغربتُ هذا الأمر، وعزمت على الكتابة إليكم فيه من قبل مجيء كتابكم المجاب، للاستفسار منكم عن صحة ما نسب إليكم. وبهذه المناسبة فإنِّي أرجو من فضيلتكم الإفادة عما لديكم في هذا الموضوع، والذي يظهر لأخيكم أنَّ الطاعة أوسع من العبادة، فكل عبادة لله موافقة لشريعته تسمَّى طاعة، وليس كل طاعة بالنسبة إلى غير الله تسمَّى عبادة، بل في ذلك تفصيل:

أما بالنسبة إلى الله ـ سبحانه ـ فهي عبادة له لمن أراد بها وجهه، لكن قد تكون صحيحة، وقد تكون فاسدة، على حسب اشتمالها على الشروط المرعيَّة في العبادة، وتخلُّف بعض الشروط عنها.

فأرجو من فضيلتكم الإفادة المفصَّلة عما ترونه في هذه المسألة، ومما يزيد الأمر وضوحًا أن من أطاع الله في بعض الأمور، وهو متلبس بالشرك يستحق أن تنفى عنه العبادة؛ كما قال الله سبحانه في حق المشركين: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، فنفى عنهم العبادة من أجل شركهم، ومعلوم أنهم يعبدون الله في الشدة بالتوحيد[1]، وبالحجِّ، والعمرة، وبالصَّدقات في بعض الأحيان، ونحو ذلك.

ولكن لما كانت هذه العبادة مشُوبةً بالشرك في الرخاء، وعدم الإيمان بالآخرة، إلى غير ذلك من أنواع الكفر ـ جاز أن تُنفى عن أصحابها.

ومما يزيد الأمر بيانًا ـ أيضًا ـ أن من أطاع الأمراء وغيرهم

(١) في الرسائل المتبادلة: «يعبدون الله في الشدائد وبالحج والعمرة».

في معاصي الله لا يُسمَّى عابدًا لهم، إذا لم يعتقد جواز طاعتهم فيما يخالف شرع الله، وإنما أطاعهم خوفًا من شرِّهم[١]، أو اتباعًا للهوى، وهو يعلم أنه عاصٍ لله في ذلك، فإن مثل هذا يعتبر عاصيًا بهذه الطاعة، ولا يعتبر مشركًا، إذا كانت الطاعة في غير الأمور الشركية، كما لو أطاعهم في ضرب أحدٍ بغير حقٍّ، أو قتل أحدٍ بغير حقٍّ، أو أخذ مال بغير حقٍّ، ونحو ذلك، والأمثلة في هذا الباب كثيرة. وما أظن هذا الأمر يخفى على من دونكم من أهل العلم، لكن لما كان هذا الأمر قد أشاعه عنكم من أشاعه، وجب علي أن أسألكم عنه، وأطلب من فضيلتكم تفصيل القول فيه، حتى ننفي عنكم ما يجب نفيُه، وندافع عنكم على بصيرةٍ، ونوضِّح الحقَّ لطالبه فيما يتعلَّق بالجماعة الإسلامية.

وإن كان ما نُسب عنكم هو كما نُسب تذاكرنا فيه، وبحثناه من جميع وجوهه، وناقشنا مواضيع الإشكال بالأدلة، والحقُّ هو ضالَّة الجميع.

فنسأل الله ﷻ أن يوفِّقنا وإياكم لما يرضيه، وأن يمنحنا جميعًا الفقه في دينه، والثبات عليه، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يجعل الحقَّ ضالَّتنا أينما كنَّا، إنه جواد كريم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

---

(١) في الرسائل المتبادلة: «وإنما أطاعهم لحظٍّ عاجل».

محاولة ناجحة بفضل الله

لتمييز الحق مما يقول الناس في:

معنى لا إلٰه إلا الله

قام بها

عمر بن أحمد المليباري

٦ رمضان ١٤١٢

١٠/٣/١٩٩٢

(*) تنبيه: جميع التعليقات هي لمعدِّ هذه الطبعة: عبد الحق التركماني، إلّا في موضع واحد نسبناه للمؤلف كما ورد في المطبوع، وبالله التوفيق.

يا علماء الدين! أيها الناصحون لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم! إن المسلمين اختلفوا في معنى «لا إلٰه إلا الله» اختلافًا شديدًا، وافترقوا أحزابًا ثلاثة، أَعْرِضُ عليكم آراءَهم راجيًا منكم تأييدَ الحقِّ وتفنيدَ الباطل، فاحتسبوا جزاكم الله خيرًا.

أخوكم
عمر بن أحمد المليباري

بلغ السيل الزُّبَى

إن أخطر مصيبةٍ حلَّتْ بالمسلمين وأشدَّها وقعًا في أحوالهم وأخلاقهم وأعمالهم ومعاملاتهم الجهل بمعنى «لا إلٰه إلا الله»، وتفريط بعضهم وإفراط آخرين، فيا للأسف الشديد!

وهذا الخلاف في معنى «لا إلٰه إلا الله» أساسيٌّ مركزيٌّ، وبهذا السبب انقسم مسلمو «كيرلا» ثلاثة: سُنِّيين وسلفيين ومودوديِّين، ولو ردَّ الجميع الأمر إلى كتاب الله وسنة الرسول كما أمر الله؛ نبذوا هذه الأسماء الجديدة كلَّها، ورضوا بالاسم الذي سماهم به الله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨][(١)].

(١) كيرلا Kerala ولاية كبيرة تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لشبه القارة الهندية، يقطنها أكثر من (٣٣) مليون نسمة، نصفهم من الهندوس، وخُمسهم من النصارى، وربعهم من المسلمين الذين يسكن أكثرهم في منطقة: Malappuram.

وأهم فرق المسلمين السُّنة فيها ـ كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ الله ـ هم: الماتريدية الأحناف الذين يغلب عليهم التصوف والتعصُّب في مسائل الفروع، وهم على درجات وأحوال متفاوتة في البدع الاعتقادية والعملية، ولهم جهود في نشر التعليم الديني وفي الردِّ على القاديانية والحركات الباطنية، ولهذا يُعرفون باللقب الذي ذكره المؤلف: (السنِّيُّون)، بالمعنى العام، مقابل تلك الفرق المارقة من دين الإسلام. أما (السلفيون) فهم أهل الحديث والأثر، السائرون على منهاج السلف الصالح، ويتميزون بالعناية بالتوحيد والسنة. أما (المودوديون) فهم أتباع (الجماعة الإسلامية) التي أسسها =

وقد طال تفكيري في حل هذا المشكل فلم أهتد إلى سبيلٍ دهرًا طويلًا، ثم يسَّر الله لي العثورَ على المجلد الثاني من مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز حفظه الله، فأول مقالة فيه تكلَّم فيها سماحتُه حفظه الله على كتيِّبٍ كتبته في بيان معنى «لا إلٰه إلا الله» مبينًا فيه الخلافَ المذكورَ، استصوب الشيخُ فيه رأيي ـ رأيَ السَّلفيين ـ وخطَّأ الرأيين الآخرين فسَرَّني ذلك كثيرًا، وشكرتُ لله ثم لسماحته جزاه الله خيرًا.

وكذلك سبق أن طبعتُ في دِهْلي كتيبًا بعنوان «معنى لا إلٰه إلا الله وما وقع فيه من الخلاف»، ثم وجدته أُعيد طبعه في الشارقة طباعةً أنيقةً للتوزيع المجاني ليس فيها اسم فاعل هذا الخير أعظم الله أجره، ولم يذكر فيها اسم المطبعة، وإنما فيها اسمي أنا فقط، فأمعنت النظر فيه فإذا فيه زيادة كلمة سقطت في الطبعة الأولى، فقد طبع أولًا «القادر على شيء» وزيد في الطبعة الثانية كلمة «كل»، فصار: «القادر على كل شيء»، وهذا هو الصواب فجزاه الله خيرًا.

وبهذين السببين انشرح صدري بفضل الله لإعداد هذه المقالة، فها أنا ذا أرسلها إلى العلماء المعروفين في الأرض طالبًا منهم الإرشاد إلى ما يجب تصحيحه، وإلى ما يحسن تبديله، لكي أعطيها الصورة النهائية ثم أطبعها وأنشرها في الأرض، وأسعى

= الداعية الصحفي أبو الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩/ ١٩٧٩)، في لاهور سنة (١٣٦٠/ ١٩٤١).

لنقلها إلى ما تيسَّر من اللغات إن شاء الله؛ فالموضوع خطير بل أخطر والناس غافلون.

فهذه الطبعة ليست للتوزيع بين عموم الناس، وإنما هي لعرضها على العلماء والدعاة لكي يتفضلوا بالإرشادات: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

وأنا شاكر لكلٍّ من يعتني بهذا الطلب وأدعو له، وأن يكتب بعضهم ما لا أستطيع الموافقة عليه أنشره مع بيان سبب المعارضة، والله الموفق وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأُرسلها إلى أمير الجماعة الإسلامية في كيرلا سابقًا الشيخ عبد الله حسين؛ لأنه هو أكبر علمائهم، وإلى شمس العلماء إي كي أبو بكر مُسليار(١) مدير كلية دار السلام التي يُربَّى فيها الطلاب على إنكار الحصر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، كما سيأتي ذكره، وإلى كانتبرم أبو بكر مسليار(٢) صاحب مركز الثقافة السنية الذي يربى فيه

---

(١) هو الشيخ إ. ك. أبو بكر مُسلِيار (١٩١٤-١٩٩٦م)، كان من أبرز علماء الصوفية في Paramblikadavu من ولاية كيرلا، ومن تلاميذه الشيخ أبو بكر مسليار الآتي ذكره.

(٢) هو الشيخ أبو بكر مُسلِيار بنُ ألأنكام بوييل، و(كانتبرم) لقبٌ له، ولد في كَنْثَبورام Kanthapuram التابعة لولاية كيرلا في الهند، سنة (١٩٣٩م)، ويشغل حاليًّا منصب الأمين العام لجمعية علماء أهل السنة والجماعة بعموم الهند، ويشرف على جامعة مركز الثقافة السنية التي أسسها سنة (١٩٧٨م)، وهو من غلاة الصوفية ودعاة القبورية، له نشاط واسع في الهند، وحضور في عدد من المؤتمرات الدولية، من مؤلفاته بالعربية: =

الطلاب على الشركيات والبدع، وهؤلاء الثلاثة زعماء الطوائف حاليًّا، أرسلها إليهم ليكتب كل منهم ما شاء، فأتبعه بالمقالة في ذيلها مع بيان موقفي، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

عمر بن أحمد المليباري

= «إظهار الفرح والسرور بميلاد النبي المبرور»، وحال التعليم الديني في مدارسه كما وصفه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد نشر جماعة من أهل العلم والدعوة في كيرلا بيانًا في التحذير منه، وبيان بعض انحرافاته في أصول الدين، وأخطرها قوله بجواز الاستغاثة بغير الله وتعظيمه للقبور المنسوبة للصالحين وتشجيعه على البناء عليها واستلامها وتقبيلها والسجود لها والعكوف حولها، واعتقاده فيها اختصاصات كاختصاصات الأطباء، لهذا يجاهر بالعداء لدعوة التوحيد، ويطعن في أئمتها ودعاتها، خاصة الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف خلق الله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد اختلف الناس في معنى «لا إلٰه إلا الله»؛ فطائفة تقول: إن معنى «الإله» المعبود بحقٍّ، أي الذي يستحقُّ أن يُعبد، فالمعنى: لا أحد يستحق العبادة إلا الله. فإذن لا بدَّ أن ننظر في أمرين:

الأول: ما العبادة؟

والثاني: ما أساس استحقاق العبادة؟

معنى العبادة: **نهاية التعظيم**، كما قال الإمام الرازي رحمه الله[(١)].

أما قول بعضهم: «غاية الذل والخضوع» ففيه نظر؛ لأن الذلَّ لازم كالخضوع، والعبادة متعدِّية لم ترد لازمًا في القرآن ولا في الحديث ولا في الأدب، ولكن هذا الخطأ يعفى عنه؛ لأن الذلَّ

(١) في مواضع من تفسيره الكبير المسمَّى «مفاتيح الغيب» دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٠، ١/١٤٥، ١٤/٣٥٠، ١٧/٣٠٨، ١٩/٤٨، ٢١/٥٤٣، ٥٥٥، ٢٣/٢٥٢، ٣٢/٢٤٣. والفخر الرازي (ت: ٦٠٦) من أئمة الأشاعرة في الكلام والأصول. وانظر مناقشتنا للمؤلف رحمه الله في المقدمة.

يستلزم التعظيم، ولكن ما دام الطريق واضحًا سالمًا فسلوكه أولى وأسلم.

وأما قول بعضهم: «ومنه طريق معبَّدٌ، أي: مذَلَّلٌ بكثرة وَطْأَة الأقدام، وبعيرٌ معبَّدٌ؛ أي: مذَلَّلٌ بكثرة تسخيره للركوب»، فلا يصحُّ؛ لأنَّ معبَّدًا ليس من «عَبَدَ» المتعدِّي بفتح الباء، بل من عَبُدَ اللازم بضمِّ الباء، وكذلك: ﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] ليس من «عَبَدَ» المتعدِّي؛ لأن المفسرين قالوا في معنى الجملة: «اتَّخذْتَهُم عبيدًا». فلازم كون معنى المجرَّد: «صار عبدًا»، والفعل المجرَّد المتعدِّي إلى واحدٍ إذا ضُعِّفَ يتعدَّى إلى مفعولين، واللازم إذا ضُعِّف يتعدَّى إلى واحد، وإن «عبَّد» في الآية تعدى إلى مفعولٍ واحدٍ فلا شكَّ أنَّ المجرَّد لازمٌ وهو: «عَبُدَ» بضم الباء وليس «عَبَدَ» بفتح الباء. يظهر أنَّ الناسَ لم ينتبهوا إلى الفرق بين «عَبَدَ وعَبُدَ» ومصدريهما، والعبودية جاءت مصدرًا لعَبَدَ فمعناها العبادة، ومصدرًا لعَبُدَ فمعناها الرِّقُّ، أي: كونُ الإنسان رقيقًا مملوكًا. والخلاصة أن الصواب في معنى العبادة ما ذكره الإمام الرازي وغيره، وهو قولهم: نهاية التعظيم.

والتعظيم معناه التكبير والتفخيم والتوقير والإجلال، وأما المراد بنهايته فقد أحسن شرحه العلامةُ الشيخُ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ(١)

(١) هو الشيخ محمَّد رَشِيد بن علي رِضا القلموني (١٢٨٢-١٣٥٤/ ١٨٦٥- =

في تفسيره بما خلاصته أن يكون التعظيمُ على أساس اعتقادِ قوَّةٍ وراء الأسباب، وهذه عبارته بحروفها:

«يغلو العاشقُ في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوًّا كبيرًا حتى يفنى هواه في هواه، وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لا يسمَّى خضوعه ـ (والأولى أن يقال: تعظيمه)[1] ـ هذا عبادةً بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحرِّيهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنِّثين القانتين دَعْ سائر العابدين، ولم يكن العربُ يسمُّون شيئًا من هذا الخضوع عبادةً.

فما هي العبادة إذن؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصُّراح على أنَّ العبادةَ ضَرْبٌ من الخضوع (التعظيم) بالغٌ حدَّ النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمةً للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطة له لا يدرك كُنْهَها وماهيَّتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى الذلِّ لملكٍ

= ١٩٣٥)، صاحب مجلة «المنار»، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي من الكتَّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ينتمي إلى مدرسة محمد عبده العصرانية، لكنه توجَّه في المرحلة الأخيرة من حياته إلى العناية بالتوحيد والسنة رَحِمَهُ اللهُ. مترجم في «الأعلام» لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت: ٢٠٠٢م، ٦/١٢٦.

(١) هذه الإضافة بين القوسين ـ وفي الموضعين الآتيين ـ من المؤلف رَحِمَهُ اللهُ على كلام الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ.

من الملوك لا يقال إنه عبده، وإن قبَّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذلِّ والخضوع (التعظيم) معروفًا وهو الخوفُ من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أنَّ للملك قوَّةً غيبيَّةً سماويَّةً أفيضت على الملوك من الملإِ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدُّنيا؛ لأنَّهم أطيب النَّاس عنصرًا وأكرمهم جوهرًا، هؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتَّخذوا الملوك آلهة وأربابًا وعبدوهم عبادةً حقيقيةً». (تفسير المنار، ج١، ص٥٦-٥٧).

هذا بيان واضح شفى غليلي وأزالَ حيرتي، لم أجد مثله عند غيره جزاه الله خيرًا، ولكن بقي شيء جدير بالذِّكر؛ ذلك أن هذا البيان لا ينطبق على كل عبادة مأمورة ومنهية كلتيهما، فعبادة الصنم ليست على مثل ما ذكره من استشعار القلب عظمة للصنم لا يعرف منشأها إلى آخر ما ذكره، وإنما الصنم وضع تذكارًا لكبير معظَّمٍ، ومرجوٍّ منه أن يشفع عند الله بزعمهم فالإنسان في الواقع يعبد الصنم، ويعبد من وضع الصنم على اسمه ويعبد الله، فالآلهة عنده ثلاثة، وكذلك شأن عابد الصليب وعابد القبر؛ كل هؤلاء يعظِّمون الصنم والصليب والقبر مُقْبِلِين بقلوبهم إلى ما وراءها من الأرواح العالية المقربة عند الله بزعمهم، وإن أول ما وقع في الأرض من عبادة غير الله هو ما حدث في قوم نوح عليه السلام، عبدوا ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وهم

رجال صالحون محبوبون مكرمون عند الناس، تأسَّفوا على موتهم أسفًا شديدًا فأوحى إليهم الشيطان «أن اصنعوا لهم صورًا ليخفَّ أسفكم بالنظر إليها»، ففعلوا[١]، ثم لم يزل هذا المرض القلبي يشتد شيئًا فشيئًا وانتهى إلى دَوْرِ العبادة، فلم يكن هؤلاء الناس يستشعرون في آلهتهم عظمةً لا يعرفون منشأها، ولا سلطةً لا يدركون كنهها إلى آخر ما ذكره الأستاذ رشيد رضا، وإنما الواقع أن الناس كانوا يعظمونهم على اعتقاد أنهم مقرَّبون عند الله يشفعون لهم، والعظمة والسلطة وما إلى ذلك كلُّها لله وحدَه باتِّفاق جميع العقلاء في الأرض، والفساد كله جاء من عقيدة الشفاعة المفتراة.

ما كان لي أن أتجرَّأ على تعقيب ما قاله الأستاذ رشيد وانتقاده فلست أهلًا لذلك، ولكن الشعور بالمسؤولية العلمية في المسألة الكبرى التي هي أهمُّ المسائل حملني عليه، مع أنِّي لستُ أنا الذي ابتكره لكن أستاذي الأكبر الشيخ محمد محيي الدين

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعْدُ، أما وَدٌّ كانت لكلب بدَوْمة الجَنْدَل، وأما سُواع كانت لهُذَيل، وأما يغوثَ فكانت لمُرَاد، ثم لبني غُطَيْف بالجُوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهَمْدَانَ، وأما نسر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكَلاع، أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انْصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عبدتْ.

أبو عبد الصمد الكاتب[١] رَحِمَهُ اللَّهُ (K. M. MOULAVI) هو الذي أرشدني إليه جزاه الله خيرًا.

وخلاصة القول أن معنى العبادة نهاية التعظيم، وبعبارة أخرى: **تعظيم الشيء على اعتقاد تأثيره وراء الأسباب.**

سألت الداعية الفدائي المستميت في سبيل الله فضيلة الشيخ عبد الله الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ (KOOTAYI) عن معنى «الإله» فألقى درسًا مستفيضًا شرح صدري وأزال شبهتي. ثم أوجز قائلًا: الإله كل ما يعتقد أن له تأثيرًا وراءَ الأسباب فيُدْعى، وهذا التأثيرُ إمَّا أن يكون ذاتيًّا مستقلًّا وهو تأثير القادر على كلِّ ما يريد، وإما أن يكون بالشفاعة عند القادر على كلِّ ما يريد.

وهناك نوع آخر: ذلك تأثير التماثيل والصور والقبور يتجه إليها الناس بالإجلال والتوقير مع الاعتقاد الغيبي، فهذا التعظيم عبادة لها، وهذا واضح من الكلمة الحكيمة التي أعلنها عمر

(١) هو الشيخ العالم الفقيه محمد بن محي الدين بن علوان الصغير بن علي حسن تيّل الأصفري (١٣٠٣-١٣٨٤) رَحِمَهُ اللَّهُ، لُقِّب بالكاتب لعمله كاتبًا لوالد زوجه الشيخ أحمد الملقَّب بكتبي أحمد من علماء الشافعية في الهند. حجَّ سنة (١٣٦٧) ومعه ابنه: عبد الصمد، فرغب ابنه في الإقامة في مكة لطلب العلم، فحقق له رغبته، وأرسله إلى السعودية سنة (١٣٦٨)، فطلب العلم في المدينة، ثم التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، واشتغل في التدريس والدعوة حتى توفي في جدة (١٤٣١) رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا الابن من شيوخ شيخنا الدكتور عاصم القريوتي، وكتب عنه ترجمة موجزة عنوانها: «صفحات من سيرة شيخنا العلامة الفرضي الأصولي عبد الصمد بن محمد الكاتب».

الفاروق رضي الله عنه عند تقبيله الحجر الأسود: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع»(١)، فهذا يدل على أن الإنسان لو قبل الحجر على اعتقاد ضره أو نفعه صار عبادة للحجر وشركًا بالله.

ومعروف حكم الله في القرآن على اليهود والنصارى أنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد ثبت في الصحيح(٢) بيانه: أنهم كانوا يطيعونهم في معصية الله، وأن هذه الإطاعة عبادتهم. وسببه واضح؛ ذلك أنه على اعتقاد علوِّ جاههم وتأثيرهم بالشفاعة عند المسيح، وهذا تأثير غيبيٌّ وليس ماديًّا. وأما إطاعة الملوك والحكام فليس على اعتقاد التأثير الغيبيِّ بل على اعتقاد التأثير الماديِّ، فهذه الإطاعةُ ليستْ بعبادةٍ، وبهذا السبب لم يذكر الملوك مع الأحبار والرهبان والله أعلم، فلُبُّ الأمر في العبادة الاعتقاد الغيبيُّ كما هو واضحٌ، والنوع الأول من هذه التأثيرات الثلاثة حقٌّ واقعٌ، والآخران باطلان موهومان، ناشئان عن الجهل، وسوء الفهم، وفساد العقيدة.

والآن فرغنا من بيان معنى العبادة بأسلوب سهل واضح، ولله الحمد.

والأمر الثاني: ما أساس استحقاق العبادة؟

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٨٤).

(٢) الحديث ليس في الصحيح لكن أخرجه الترمذي (٣٣٥٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» ١١/ ٣٧٧٣، برقم (٢١٨)، وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في المجموع ٧/ ٦٧، والألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١).

وهذا واضح في سورة الفاتحة؛ فبعد وصف الله بأنه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾؛ نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وخلاصة القول في بيانه: أن الذي خلقنا وربَّانا وخلق وربَّى جميع العالمين ورعاهم برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء، والذي يميتنا ثم يحيينا، ويوفي الجميع أجور أعمالهم هو وحده يستحق عبادتنا، وهي السبيل الوحيد لسلامتنا، وهذا الموضوع واضح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة]. تدل الآية على أن سبب استحقاق العبادة الخلق والتربية والرعاية.

وقال في موضع آخر: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود]، تدل الآية على أن علم الغيب سبب لاستحقاق العبادة، كما أن القدرة وراء الأسباب سبب له أيضًا، وأنه وحده يدبِّر الأمر وليس لأحدٍ من الخلق أن يتدخل فيه، والخلائق كلهم ينتظرون حكمه ولا يحيدون عنه أبدًا، فهذا أيضًا سببُ استحقاق العبادة، وكل ما عبد من دون الله مخلوقون عاجزون، وجدوا حينما أوجدهم الله، وهلكوا حينما أهلكهم الله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧]، والناس بسوء فهمهم وفساد عقيدتهم يعتقدون أنَّ أولياءَ الله والجنَّ والملائكةَ أصحابُ قدرة وراء

الأسباب، فيتوجهون إليهم بكلِّ تعظيمٍ واحترامٍ ويطلبون منهم قضاء الحاجات وكشف الكربات فتلك عبادتهم، وقد اغتر كثير من أهل الدين بأن الملائكة موكلون ببعض التدبيرات الكونية فقدرتهم واقعية بلا شك، فتوهَّموا أن لا محذور في طلب تلك الأمور منهم.

وحقُّ اليقين أنه لا إرادةَ لهم مستقلةً ولا قدرةَ مستقلةً، وإنما المريد القادر هو الله وحده، وقدرةُ جميع الخلائق تنقطع حينما يشاء الله، فليس منهم أحدٌ يستحقُّ العبادة، وإنما يستحقها الله وحده لا شريك له.

زعم عُبَّاد القبور المشركون أنَّ عِبادَ الله الصالحين المقرَّبين إلى الله يشفعون لهم عند الله فيدعونهم، ويعملون ما يرضيهم ـ بزعمهم ـ من تقديم النذور والهدايا والقرابين ونحر الذبائح، وإطعام المساكين بأسمائهم، والاحتفال بموالدهم، ويبنون على قبورهم مباني فاخرةً، ثم يتَّخذونها أعيادًا ويوقدون عليها السرج، ويتحَرُّون تنظيفها وتزيينها، ويطوفون حولها ويسجدون لها، وكم وجدنا بجنب المساجد مقابر بالَغَ الناسُ في تعظيمها أكثر من المساجد، ومع ذلك يزعمون أنهم هم المسلمون الصادقون المستقيمون على الصراط، ويزعمون أن المخالفين منحرفون عن الصراط ضالُّون مُضِلُّون، ويفترون عليهم أكاذيبَ خبيثةً مقذِعَةً، كما افترى أسلافهم على إمام الدعوة البريء الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذه الوساطة المزعومة سببٌ لاستحقاق العبادة عندهم، وهذا واضح فيما حكى الله عن مشركي مكَّة

قولهم في آلهتهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، وقولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وفيما ورد من قولهم في تلبية الحج: «لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[(١)]. وهكذا المشركون في كلِّ زمان، والحقُّ الواقعُ اليقينيُّ أنَّ هؤلاء القبوريين شركُهم أشدُّ من شرك عُبَّاد الأوثان؛ لأنهم يعملون هذه المنكرات باسم الإسلام، وقد وجدنا مسلمين جدًا انسجموا مع هؤلاء القبوريين فنبذوا دعاء آلهتهم في الديانة القديمة وانتقلوا إلى دعاء آلهة القبوريين، والحقُّ أنَّ الحالتَيْن سواء.

وفصل الخطاب في الردِّ على هذه الدعوى ـ دعوى الشفاعة ـ تعالى الله عن تأثير الشفعاء في إرادة الله وتدبيره: كما هو معلوم أن تأثُّر الحاكم بتوسط الشفيع ينقص من قدره، والله أعلى وأجلُّ ومنزَّهٌ من صفات النقص كلها، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا كان الشفيع ينتظر الإذنَ فلا تأثير له أَلبتَّةَ، فلا سلامةَ للعبد إلا بالانقطاع إلى الله وحده والشفعاء لا يملكون شيئًا، وإن أشرف خلق الله الذي أعطاه الله ما لم يُعْطِ أحدًا من عباده ـ استدعاه إلى مقامٍ خاصٍّ فوق السماوات العلا وحادثه ـ؛ سيسجد يوم القيامة تحت العرش سجدةً طويلةً لا يعرف مداها

(١) أخرجه مسلم (١٢٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك. قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم، قد. قد». فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك! يقولون هذا، وهم يطوفون بالبيت.

إلا الله للحصول على الإذن بالشفاعة، ولا يتجرَّأ على التصريح بالاستئذان وإنما يُضْمِرُه في قلبه[١]، فسبحان الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٢٧﴾ [الجاثية].

والآن فرغنا من بيان أسباب استحقاق العبادة بالإيجاز، **وأكرر أن العبادة معناها: نهاية التعظيم. وبعبارة أخرى: التعظيم على اعتقاد التأثير وراء الأسباب.**

* * *

ثم أقول: إن أوضح مظاهر هذا التعظيم هو الدعاء؛ لأن الإنسان عندما تعرض له حاجةٌ لا يقدر على نيلها، أو آفةٌ يعجز عن دفعها ـ مثلًا نشفت البرك والآبار والأنهار وصار الجوُّ حارًّا بشدة وكاد الحيوان يموت بالعطش ـ، فطبيعة المؤمن أن قلبه يلتجئ إلى الله ويعظِّمه غاية التعظيم ويطلب منه الفرج، ويقول: يا رب أغثنا. فالدعاء طبيعيٌّ بلا شكٍّ، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر]». رواه الإمام أحمد[٢] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، ورواه

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٨٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الشفاعة، وفيه: «فأستأذن على ربي، فيُؤذن لي، ويُلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجدًا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تشفع...».

(٢) «المسند» ٤/ ٢٦٧ (١٨٣٥٢).

أصحاب السنن[١]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فالرسول ﷺ بعدما علَّمنا أن الدعاء هو العبادة أرشدنا إلى دليله وهو الآية المذكورة، ووجه الاستدلال واضح؛ وذلك أن الله أمرنا بدعائه ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾، ثم أنذر المستكبرين عن العبادة، فظاهر أن المراد بالعبادة هو الذي ذُكِرَ قبله وهو الدُّعاء.

وقد فسَّر الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ بقوله: «أي عن دعائي»[٢]، وهذا واضح في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]، فقوله: ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ المراد منها العبادة التي ذكرت قبله وهي الدعاء كما هو واضح.

وقال تعالى فيما حكى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ [مريم]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]. فقوله في الآية الأولى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ﴾، كلاهما واحد؛ فهذا أوضح دليل على أن الدعاء هو العبادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وابن حبان (٨٩٠). وقال النووي في «الأذكار» ٤٧٨: إسناده صحيح. وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١/٦٤: إسناده جيد. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» ٦/ ٥٠٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦، غافر: ٦٦]، تدل الآية على أن العبادة والدعاء واحد، وقد صرح القرآن أن دعاء غير الله شرك: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]. فقوله: ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ المراد بالشرك ما ذكر قبله وهو دعاء غير الله.

والآيات في هذا كثيرة، فمن قال: «اللهم أغثني». فقد عبد الله، ومن قال: «يا عيسى، أغثني» فقد عبد عيسى.

تنبيه:

سمعنا بعض العلماء يقول: من عثر في البئر فنادى رجلًا واقفًا على حافة البئر: «يا فلان أغثني» فلا جناح عليه بلا شكٍّ، فكذلك من قال: «يا محيي الدين أغثني» ـ يريد وليَّ الله المتوفَّى قبل قرون[1] ـ لا يضر، بل هو استجابة لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، زاعمين أن الوسيلة أولياء الله، فأصبح الشرك عندهم مأمورًا به في القرآن.

---

(١) يقصد المؤلف رحمه الله الشيخَ الإمام محيي الدين أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي ـ أو: الجيلاني، أو: الكيلاني ـ الحنبلي (ت: ٥٦١) رحمه الله؛ فللصوفية في بلاد الهند اعتقاد كبيرٌ فيه، وكانوا قبل أن تضطرب الأوضاع في العراق يشدون الرحال لزيارة قبره في بغداد، فيطوفون به، ويسجدون إليه، ويستغيثون به.

أقول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ﴾ [فصلت: ٤٠]، إنذار عظيم يشير إلى شدة غضب الله وإلى عظمة العذاب وتنوعه.

إذا كان علماؤنا الدعاة يفترون على الله مثل هذا الكذب فإلى الله المشتكى، ويالله للمسلمين، هؤلاء من الذين أضلهم الله بالقرآن نعوذ بالله، من ذا الذي لا يدري الفرق بين نداء الواقف على حافة البئر وبين نداء الولي المتوفَّى قبل قرون، والفرق واضح؛ ذلك أن الواقف على حافة البئر تأثيره ماديٌّ واقعيٌّ في محيط الأسباب، وتأثير الشيخ محيي الدين غيبيٌّ مزعومٌ وراءَ الأسباب موهومٌ كالسَّراب، فتعظيم الولي في هذه الحالة لا شكَّ أنه على اعتقاد التأثير الغيبيِّ، وهذا التعظيم هو العبادة، فهذا العاثر في البئر بندائه هذا عَبَدَ الشيخَ محيي الدين، وكفر بالله، وأشرك معه.

وهذا الشرك في دعاء الوليِّ له أربعة أسباب:

الأول: اعتقادُ أنَّ الوليَّ يسمع النداءَ بدون فرق بين السِّرِّ والجهرِ، وبين القُرْب والبُعْد؛ فهذا الجاهلُ يجعل الوليَّ لله نِدًّا في صفة السَّمع، وهذا الاعتقادُ وَحْدَه كافٍ للحكم عليه بكفره.

والثاني: اعتقادُ أنَّ الوليَّ يعرف كلَّ الطلبات التي يقدِّمها إليه آلاف الناس بلغات شتَّى وفي مواضيع مختلفة، يعرف كلًّا منها بدون اشتباه واختلاط، وقد وجدنا هؤلاء الجهلاء يقولون: إنَّ الشيخَ محيي الدين يعلم كلَّ ما يعلمه الله، بل يحصي حروف علم الله؛ أي إذا حَرَّرْتَ علومَ الله فكم يكونُ عددُ الحروف،

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد]، ومثله في يونس (٤٦)، وفي غافر (٧٧)، وفي آياتٍ كثيرةٍ، تدلُّ الآيات على أن الرسول ما رأى ما وقع عليهم من العذاب بعد وفاته، إذا كان هذا شأن الرسول فما ظنكم بغيره! فليس لأحدٍ من الخلق بعد موته شيء من الاطلاع على الدنيا، ولا شك عند المسلمين أن صاحب هذا الاعتقاد أشد الناس كفرًا.

الثالث: اعتقادُ أنَّ الوليَّ قادر على قضاء الحاجات إما ذاتيًّا أو بالشفاعة المؤثِّرة في مشيئة الله ـ وللناس في هذا قصص كثيرة يتحاشى الأَعِفَّاء من ذكرها وسماعها ـ وكلاهما كفر.

والرابع: الدعاء وهو العبادة، فإذا قال: «يا محيي الدين أغثني». كفر بالله وأشرك معه لأربعة أسباب.

لعلك ـ يا أخي القارئ! ـ فهمت الآن مكانة الدعاء في الإسلام، وتعال معي نتدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان]. إنَّ القرآن ـ كلَّه ـ أَمَرَ اللهُ الرسولَ بتبليغه؛ فإنَّ إعادة الأمر في بعض المواضع ـ كما هنا ـ ليست إلا لأهمية الموضوع، والله أعلم، طالما فكَّر المتدبِّرون في هذه الآية العظيمة فبدا لمن شاء الله ما شاء، يظهر أن الآية تدل على أن الله لا يعبأ بعباده أي لا يعتني بشؤونهم، ولا يقدرُ لهم قدرًا إذا كانوا لا يدعونه، وإنما يعبأ بهم بسبب أنَّهم يدعونه، ولو كان كلُّهم على ما ينبغي من الدعاء لكان شأنُ العالم

بلا شكٍّ خيرًا وأفضلَ وأحسنَ مما هو عليه الآن، والواقع أن من يدعونه قليلٌ فبسببه امتزج الشرُّ بالخير، وسلمت الدنيا من الهلاك العام، وحينما سينقطع الدعاء ولا يكون في الأرض أحدٌ يدعوه؛ حينئذٍ وقعت الواقعةُ، وجاءت الطامة الكبرى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]. ولكنكم أيها الكافرون كذَّبتم بهذا الحقِّ الواضح وضوحَ الشمس فاعلموا أنَّ جزاءه يكون حتميًّا لازمًا لا تستطيعون دفعه ولا تجدون أحدًا ينصركم.

❁ ❁ ❁

إنَّ الدعاء شأنه عظيم؛ لأنه هو العبادة، ولأن جميع العبادات روحها الدعاء، فإذا قلنا: «اللهم اغفر لنا» فله فائدتان:

الأولى: المغفرة بفضل الله.

والثانية: الإثابة على الدعاء.

فسبحان الله ما أعظم فضله! يقضي للعبد حاجته ثم يثيبه على سؤاله، والرسول ﷺ يقول: «**من لم يدْعُ اللهَ ﷻ غَضِبَ عليه**». رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[(١)]. ذكره الإمام ابن كثير وقال: إسناده لا بأس به[(٢)].

---

(١) «المسند» ٢/ ٤٤٢ (٩٧٠١).

(٢) وقع في المطبوع: (وقال: إسناده لا بأس به، ذكره الإمام ابن كثير). والصواب ما ذكرناه، فقد ذكر ابن كثير رحمه الله الحديث في «تفسيره» ٦/٥٠٤، ثم حكم على إسناده. =

وقد حكي عن سفيان الثوري أنه كان يقول: يا مَنْ أَحَبُّ عباده إليه مَنْ سأَله فأكثر سؤاله، ويا مَنْ أَبغَضُ عباده إليه من لم يسأله، وليس أحدٌ كذلك غيرك يا ربُّ[(١)].

تنبيه:

يظن بعض الناس إذا لم يتم مراده في الدنيا بعد الدعاء أن دعاءه أصبح ضائعًا لاغيًا بلا فائدة، وهذا خطأ كبير؛ لأنه بفضل الله يثاب على الدعاء في الآخرة؛ لأنه عبادة، فإذا دعا لشفاء مرضه ألف مرَّةٍ فهذا ألف عبادة يثاب عليها، ولأمر ما ـ اختصَّ الله بعلمه ـ لم يمتعه بالشفاء، فرضاءه بالقضاء وصبره على البلاء كلاهما عبادة أيضًا، فيضاعف له الثواب وفضل الله عظيم؛ قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما مِنْ مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إِثْمٌ ولا قطيعةُ رَحِمٍ إلَّا أعطاه الله بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أَنْ يُعَجِّلَ له دعوتَه، وإمَّا أن يدَّخِرها له في الآخرة، وإما أَنْ يَصْرِفَ عنه من السُّوء مثلها**». قالوا: إذن نكثر. قال: «**الله أكثر**». رواه أحمد[(٢)] والبزار[(٣)] وأبو

= والحديث أخرجه ـ أيضًا ـ ابن ماجه (٣٨٢٧) بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والترمذي (٣٦٦٩) بلفظ: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه».

(١) ذكره ابن كثيرٍ في «تفسيره» ٦/ ٥٠٣، وقال: «رواه ابن أبي حاتم».

(٢) «المسند» (١١١٣٣).

(٣) «المسند» (٣١٤٤).

يعلى[١] بأسانيد جيدة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد[٢]. (الترغيب والترهيب)[٣].

والرجاء أنَّ الدعوة المدَّخَرة في الآخرة تكون أعظم أجرًا من الدعوة المعجَّلة في الدنيا كما سبقت الإشارة إليه.

تنبيه:

إذا فهمت هذا ـ أيها القارئ ـ يبدو لك طريقة الاستمرار على العبادة بلا انقطاع، وهذه أمنية كل مؤمن، إذا كنت تمشي تخشى زلَّةَ القدم كما تخشى ضربة الشمس، وكما تخشى دائمًا نوبة القلب، فإن كنت مقبلًا بقلبك على الله طالبًا منه السلامة فأنت مستمر على العبادة التي هي الدعاء، حتى إذا كنت في ألذِّ متاع الدُّنيا ـ حالة التمتع بمضاجعة قرينتك ـ وأنتما تطلبان الولد: فتوجيه هذا الطلب إلى الله الوهَّاب عبادةٌ خالصةٌ، كما أنك بعدما قضي وطرك منها إن أحسنت إليها بالبقاء على العمل إلى أن تروى ابتغاء مرضاة الله فلك الأجر، كما قال الرسول ﷺ: «**وفي بُضْع أحدكم صدقة**»[٤].

---

(١) «المسند» (١٠١٩).
(٢) «المستدرك» (١٨١٦).
(٣) وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» ٢/ ٢٧٨ (١٦٣٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٠١٩).
قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» ٧/ ٩٢: (بُضع) هو بضم الباء، ويطلق على الجماع، ويطلق على الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا، وفي =

والذين يركبون المراكب البرية والبحرية أو الجوية يخشون الحوادث، فيتوجَّه المؤمنون منهم بقلوبهم إلى الله خاشعين داعين للسلامة وهو العبادة، وأما المشركون من عُبَّاد القبور وغيرهم فيتوجَّهون بقلوبهم خاشعين داعين أولياء الله وهذه عبادتهم أيضًا.

إذا فهم الإنسانُ هذه الحقيقة، أي أَنَّ الله وحدَه يستحقُّ أن يُدْعى ويعبد، وأَنَّ كلَّ من سواه من المدعوِّين لا يعرفون حاجةَ الدَّاعي فضلًا عن الإجابة، فلا يستحقُّ أحدٌ منهم أَنْ يُدعَى ويُعبد. إذا فهم هذا اطمأنَّ قلبه، واستنارت بصيرته، وانشرح صدره إلى الإسلام، وبذل طاقته لإرضاء ربه بفعل المأمورات وترك المنهيات فرادى وجماعات، فبذلك صلحت أحوالهم، وحسنت أخلاقهم، واستقاموا على الطريقة، وتعاونوا على الخيرات، وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فظهر أن هذا أصل كل خير في الدنيا والآخرة.

فكلمة «لا إِلٰه إلا الله» شأنها عظيم، وهنا تظهر حكمة الرسول في قوله ﷺ: «**يا أيها النَّاسُ؛ قولوا: لا إِلٰه إلا الله؛ تُفْلِحوا، وتملكوا بها العربَ وتَدِينُ لكم بها العجم**»[1]. وقد شهد العالم

= هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادةً إذا نوى به قضاء حقِّ الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهمِّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٩٤)، وابن خزيمة (١٦٠)، =

بوقوع هذه النتيجة الذهبية حينما قالوها وعرفوا لوازمها ونواقضها وعملوا اللازم. أُسَطِّرُ هاهنا كلمة قرأتها في مجلة الأزهر تحت عنوان: «عمر الفاروق رضي الله عنه»، قرأتها قبل خمسين سنة فعلقت في قلبي كالنقش في الحجر: «إن هذا الرجل الذي كان في ثوبه أربع عشرة رقعةً كان إذا ذكر اسمه ارتعدتْ له فرائِصُ ملوك الأرض».

ولقد صدق الله حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فسبحان الله ما أعظم شأن «لا إلٰه إلا الله»، وما أشدَّ وقعه في الأنفس وفي الأرض.

ومن نواقضها ما يفعل الناس من دعاء أولياء الله، والبناء على قبور الصالحين والوجهاء والملوك والقادة وتعهدها بالتنظيف

= وابن حبان (٦٥٦٢)، والحاكم ٢/ ٦١٠ وصححه، من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس! قولوا: لا إلٰه إلا الله، تفلحوا». وصححه ابن حزم في «المحلى» ٩/ ١١٣ (١٦١٨)، وابن الملقن في «البدر المنير» ١/ ٦٨٠، وله شواهد كثيرة تراجع في تخريجها «مسند الإمام أحمد» (١٦٠٢٣)، و«مجمع الزوائد» ٦/ ٢١-٢٢، و«المسند الجامع» (٣٧٢٠) و(١٥٤٠٠).

أما قوله: «وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فورد في حديث آخر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ١٠٤ مرسلًا. وضعفه الألباني في «دفاع عن الحديث النبوي والسيرة» ٢٠.

وأخرج أحمد ١/ ٢٢٧ (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في دخول النبي ﷺ على عمِّه أبي طالب قبيل موته، وفيه: «يا عمُّ! إني أُريد منهم كلمةً واحدةً تدينُ لهم بها العربُ، وتؤدِّي إليهم العجمُ الجزيةَ». وإسناده ضعيف، وضعَّفه الألباني في «ضعيف موارد الظمآن» (٢١٣).

والتجميل وما إلى ذلك، ومن لوازمها إزالة هذه المباني؛ لما ثبت أنَّ الرسولَ أَمَرَ بتسوية القبور المشرفة لما بَلَغَ عمرَ الفاروق رضي الله عنه أن الناس يقصدون قبر نبي الله دانيال عليه السلام أمر بمحو أثره[١]، وكذلك لما بلغه أن الناس يقصدون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها وقلع جذورها[٢].

ولما استولى عبد العزيز آل سعود رحمه الله على الحجاز، وآتاه الله الملك، استفتى علماءَ المذاهب الأربعة الموجودين في مكَّة في شأن القباب والمباني فوقَ القبور؛ فأَفْتوا جميعًا بوجوب هدمها، ففعل، تقبَّل الله منه وأعظم أجره، وأعتقد أن ببركته هدأت الأحوال، واستتبَّ له الأمر، واطمأنت البلاد، وأمن العبادُ والحجَّاج القادمون من كل فجٍّ بعد أن كانوا يُغْصَبُ ما في أيديهم، ويقتلون بأيدي اللصوص وقطاع الطرق، وكل هذه الخيرات من بركات: «لا إلٰه إلا الله».

قصة:

جاء مندوب إمبراطور بريطانيا إلى الرياض، ونزل ضيفًا على الملك سعود رحمه الله، فرغب في رؤية قبر الملك عبد العزيز فذهبوا به إلى المقبرة العامة لآلاف القبور وفتحوا باب الحائط وقالوا:

(١) أخرجه محمد بن إسحاق في «المغازي» ١/ ٤٣، وصححه الألباني في تخريج أحاديث «فضائل الشام ودمشق» للربعي ٥١.

(٢) الأثر ضعفه الألباني رحمه الله في «تحذير الساجد» ١٢٥، وبيَّن هناك أن الشجرة لم تقطع بل خفيت على الصحابة في العام الذي يلي عام بيعة الرضوان.

إن قبر الملك فيما بين قبور عموم الناس لا مَيِّزَةَ له ولا مزيَّة ولا علامة، ولم يعينوا له قبر الملك، فاستغرب ووقف واجمًا وألقى الكاميرا(١).

---

(١) وممَّا يحسُن ذكره هنا ما جاء في صحيفة «الرياض» السعودية، العدد (١٣٥٧٠)، الجمعة ١٤ رجب ١٤٢٦/١٩ أغسطس ٢٠٠٥، وفي صحيفة Gulf News في ٢١/٨/٢٠٠٥م: «أثَّرَ مشهد تشييع جثمان الملك فهد بن عبد العزيز خادم الحرمين الشريفين رَحِمَهُ اللَّهُ في قسيس نصراني معروف في إيطاليا، وقاده المشهد لاعتناق الإسلام ونطق الشهادتين، وذلك نظرًا لبساطة تشييع الجنازة، وبُعدها عن التكلف والمبالغات. وفعلت مشاهدات هذا القسيس في مراحل التشييع ما لم تستطع فعله الكتب والمحاضرات والدعوة والتفاسير التي كان يزوَّد بها من بعض الدعاة حتى قادته صور تشييع الملك فهد رَحِمَهُ اللَّهُ إلى اعتناق الإسلام بعد أن اطلع على سماحة وعدل الدين الإسلامي. وقد تابع القسيس ـ تحتفظ «الرياض» باسمه ـ عبر الفضائيات تشييعَ الملك فهد رَحِمَهُ اللَّهُ وتشييع جثة لشخص آخر في نفس الوقت، وشاهد أن لا فروقات بين الجثتين والصلاة عليهما معًا: جنازة الملك والجنازة الأخرى. كان لهذا المنظر وقع في نفسه، الأمر الذي بدَّل حياته صورة المساواة في الإسلام، وشدة البساطة التي شاهدها العالم بأسره في مقبرة العود، فلا فرق بين قبر ملك وحاكم عظيم، وقبر شخص آخر، عن ذلك أعلن إسلامه. يقول أحد المهتمين بشؤون الدعوة إلى الله أبلغني بقصة إسلام القسيس الطويلة: كان هناك من الدعاة من يحاول طيلة (١٥) سنة محاورة هذا القسيس ودعوته للإسلام، ولكنها محاولات لم تثمر عن شيء حتى شاهد القسيس تشييع جنازة الملك فهد العظيم والقائد الفذ رَحِمَهُ اللَّهُ حينها أعلن القسيس إسلامه. وكان المسلم الجديد الذي أعلن إسلامه يوم تشييع جنازة الملك فهد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال للدكتور عبد الله المالك ـ الداعية السعودي المقيم في روما ـ: لم تهزني كتبكم ولا رسائلكم ولا مجادلاتكم بقدر ما هزني ما رأيت في جنازة الملك فهد رَحِمَهُ اللَّهُ من بساطة وسماحة. وأضاف: إن مشهد يوم الثلاثاء سوف يكون له تأثير في نفوس الكثير ممن هم على شاكلتي ممن تابع التشييع. وطالب المسلمين =

تنبيه:

كلنا ندعو الله أَنْ يقينا أسبابَ غضب الله؛ وذلك في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإذن يجب علينا درس أسباب غضب الله واجتنابها، فإذا رجعنا إلى السنة الصحيحة وجدنا أن البناء على القبور من أخطر أسباب غضب الله كما ثبت أمر الرسول ﷺ بتسوية القبور المشرفة، فما بال أناس يسألون الله وقاية غضبه، ويتعمَّدون إنشاءَ المباني على القبور؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف]، مثلهم كمثل رجال يدعون الله أن يهب لهم أولادًا ولا يريدون الزواج، بل هم أضلُّ.

شرحنا ـ نحن السلفيين ـ هذا الموضوع في بلادنا فإذا بطائفة من أهل الإسلام الذين يدَّعون أنهم كاملو الإسلام، وأن السلفيين ليس عندهم من الإسلام إلا بعضه ـ بزعمهم ـ سخروا منَّا، واستهزؤوا بنا، ونبزونا بلقب «ثُوَّار المقابر»، غير آبهين بأن قائد هذه الثورة هو رسول الله ﷺ، لا مِنْ عنده بل مِنْ عند الله؛ ولذلك أقول: إنَّ هذه السخرية لا تقع على السلفيين، بل تقع على القائد الذي أمر به، وعلى الذي حَمَّله الرسالة، وهذا ارتداد عن

= بالحرص على نشر المزيد من صور سماحة الإسلام وعدله، لتأثيره في نفوس الآخرين، مؤكدًا أنه أخذ العهد على نفسه لبذل قصارى جهده فيما تبقى من العمر (عمره ٦٢ سنة) لنشر الصورة المثلى للإسلام».

الإسلام بدون شعورٍ، نسأل الله العافية، ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة].

ويا حسرةً على طائفة من قومنا يَدْعُون أولياءَ الله ويعملون المنكرات على أساس دعائهم، فعرضنا عليهم كلام الله وكلام رسوله مما يدل على شناعة حالهم ووجوب إفراد الله بالدعاء وترك دعاء غيره، وشرحنا لهم معنى «لا إله إلا الله» بحيث تظهر منافاة شأنهم لها؛ فاستهزؤوا بنا وشتمونا وطردونا وأبوا أن يسلموا علينا ويَرُدُّوا السلام علينا، ولولا أن حكومتنا أعلن دستورُها الحريةَ الدينيةَ لكلِّ قوم، وقد حرصتْ على تنفيذها؛ أصابنا كل مصيبة، ومع ذلك أوذينا وأصبحنا مهددين حتى أن بعضنا قتل مطعونًا، وبعضنا قتل مرميًّا بالقنبلة، واعتدي على مكتب منظَّمتنا «ندوة المجاهدين»(١) برمي القنبلة بأيدي رجال من أتباع نمروذ وفرعون وأبي جهل، والسبب في كل هذا أننا ندعوا إلى ترك دعاء أولياء الله، وإنه لعجب شأنهم يقولون: إن الله ربُّنا وربُّ كلِّ شيء وبيده ملكوت كل شيء وهو الذي ينزل الغيث، ومع ذلك إذا اشتد القحط يدعون أولياء الله، ويعملون المنكرات الفظيعة عند قبورهم، فيا للأسف ويا للعار ويا للفضيحة! ويا ليتهم فكَّروا لحظة هل هذه أسوة الرسل أم أسوة الكفار.

لعلك ـ أيها القارئ الكريم! ـ فهمت الآن قوله ﷺ: «**الدعاء**

---

(١) هي جمعية أسسها الشيخ محمد الكاتب سنة: (١٩٥٠م)، ما زالت قائمة، وهي تقوم بنشاطات دعوية كبيرة، وتشرف على مئات المساجد.

هو العبادة»، وقد ورد: «**الدعاء مخ العبادة**»[(١)]. أي أن العبادات القلبية والقولية والبدنية وكذلك الفعلية والتَّرْكِيَّة روحها ولبها الدعاء لا يكون شيء منها عبادة إذا لم يكن على أساس الدعاء.

وهذا الحديث الثاني وإن كان سنده ضعيفًا لكن الموضوع ثابت بالقرآن والحديث؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، تدل الآيتان على أن سعي الآخرة لا يكون عبادة لله، والعمل الصالح لا يكون عبادة لله إلا إذا كان الساعي والعامل مؤمنين بالله واليوم الآخر، والإيمان يورث الرغبة في رضوانه وثواب الآخرة والخوف من غضبه وعذاب الآخرة، وهذا هو الدعاء.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون]، فصلاة المرائي بسبب خلوها عن دعاء الله ليست عبادة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وقال الألباني في «أحكام الجنائز» ٢٤٧: فيه ابن لهيعة ضعيف لسوء حفظه، لكن معناه صحيح.

[البقرة: ٢٦٤]، فهذه الصدقات ليست من عبادة الله؛ لأنها خالية عن الدعاء الذي هو المخُّ.

ومعروف أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله أي أطاعوهم في معصية الله، وتلك الإطاعة على أساس الدعاء فهي عبادتهم، ولا شك أنهم كانوا يطيعون ملوكهم وحكامهم، ولكن هذه الإطاعة ليست على أساس الدعاء فليست عبادة، فقد أخطأ القوم الذين كَفَّرُوا مطيعَ الملوك.

وقد ثبت في الحديث: أن المتصدق بماله رياءً، والمقاتلَ في سبيل الله رياءً، والمعلِّم الواعظ رياءً، هؤلاء الثلاثة أول مَنْ يُلقى في النار(١)، وظاهرٌ أنَّ سببه أنَّ هذه الأعمال الصالحات لم يعملوها على أساس دعاء الله، فليستْ عباداتٍ لخلوها عن الدعاء

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٨) من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».

الذي هو المخُّ، ومعروف لكلِّ مسلم أنَّ عمارة المساجد عبادة لله إِنْ كان على أساس دعاء الله، وأما عمارة مقابر الأولياء فتلك عبادة لهم؛ لأنها على أساس دعائهم.

والإقبال إلى المسجد لأداء الصلاة مع الجماعة عبادة عظيمة؛ وذلك لأنه على أساس دعاء الله، والإقبال إلى الكنيسة أو إلى معبد الأوثان أو إلى القبر المعظَّم عبادة شركية؛ لأنها على أساس دعاء غير الله.

وطواف الكعبة على دعاء الله عبادة له، وطواف الكنيسة أو القبر على أساس الدعاء عبادة شِرْكيَّة.

وإن قصَّة الثلاثة الذين انحبسوا في الغار معروفة، فأحدهم شَغَفَ قلبَه حبُّ فتاةٍ جميلة وراودها عن نفسها فامتنعتْ ثم انقادتْ له أخيرًا رغم أنفها، ففي آخر اللحظات وبعدما كشف عورتها قالت: «**اتقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إِلّا بحَقِّه**»[1]. فامتنع وكفَّ عن الفاحشة خوفًا من عذاب الله، فهما عبدا ربهما بترك الفاحشة، وهذا الترك بلا شكٍّ عبادة خالصة، وسببه أنه على أساس الدعاء.

وكذلك في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ الله**»[2]. فهذا الامتناع من الفاحشة كما فعل يوسف

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦) و(٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٤٤).

نبي الله عليه السلام حينما أكرهته امرأة العزيز؛ عبادةٌ خالصةٌ جليلةٌ بسبب أنه على أساس الدعاء.

وغسل الجنابة عبادة بسبب الدعاء المستكنِّ فيه، وغسل الراحة ليس عبادة لخلوِّه من الدعاء، وغسل الأعضاء في الوضوء عبادة وغسلها للراحة حلال فقط.

وكذلك ترك نظر الأجنبية[1] والأمرد الجميل، وترك الكذب والغيبة والنميمة، وترك السبِّ والشتم، وترك دعاء غير الله، وترك الكِبْر والحسد، وترك الافتراء على الله، وترك الحكم بغير ما أنزل الله، وترك تحريف آيات الله، وترك جميع المنهيات كل ذلك عبادات إذا كانت على ابتغاء مرضاة الله وهذا هو الدعاء، فهذا الحديث: «**الدعاء مخ العبادة**» من جوامع الكلم الموجزة التي فضل الله بها نبينا ﷺ نعمةً منه علينا وعلى الناس.

تنبيه:

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة]، فتحقَّق أَنَّ بيان الرسول ﷺ لما في القرآن ليس من عنده بل من عند الله بلا شك، وعبادة الله وحده هي أهم مقاصد القرآن. والرسول ﷺ قد فسَّر العبادة بهاتين الجملتين الموجزتين: «**الدعاء هو العبادة**»، «**الدعاء مخ العبادة**». فالواجب علينا أن نحسن فهمهما ونكتفي

(١) الأجود أن يقال: (وكذلك ترك النظر إلى الأجنبية..).

بهما، ولا ننظر إلى غيرهما؛ لأنه بيانُ الرسول ﷺ، فيه الغنى عن كل بيانات الناس. وإن أكثرها شيوعًا بعد زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قولهم: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه... إلخ(١).

أقول: صحيح بلا شكٍّ أن جميع ما يحبه الله ويرضاه عبادات، فهذا بيان عبادة الله الخاصة المأمور بها، وأما ذكر هذا البيان في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فلا يصحُّ؛ لأنَّ المعنى: نعبدك وحدَكَ ولا نعبد غيرك، فإذا شرحنا العبادة بما سبق، وقلنا: نعمل ما يحبه الله ويرضاه ولا نعمل ما يحبه المسيح ويرضاه، ولا نعمل ما يحبه الصنم ويرضاه؛ فذلك لَغْوٌ من القول وهذيان، وقد وجدنا هذا عند

(١) وهذه الكلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨) رحمه الله ذكرها في «رسالة العبودية» ضمن: «مجموع الفتاوى» ١٠/١٤٩، وقد استحسنها العلماء من بعده، واشتهرتْ بين الخاصة والعامة وهي قوله: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله. وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها».
قلتُ: هذا التعريف بالمثال من حيث أنواعها وأفرادها، وليس تعريفًا لماهيتها.

كثير من المعروفين بغزارة العلم، وسعة الاطلاع، والعناية بأمر الدين والدعوة، فكيف لم يفكروا أن هذا البيان لا ينطبق في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولو فسَّروا انطلاقًا من قول رسول الله الذي تلقَّى مِنْ عند ربِّه فقال: «**الدعاء هو العبادة**»، وقالوا في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: ندعوك وحدك ولا ندعو غيرك وليًّا كان أو رسولًا أو ملكًا أو جنيًّا أو صنمًا لكان مفهومًا، وإن بيان الرسول ﷺ أولى بالقبول.

وأزيد الموضوع إيضاحًا فأقول: إذا قلنا: «عبادة الله اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه»؛ فلا بأسَ به مع ما فيه من أنَّ مثل الصلاة في الأوقات المحرمة ومثل صوم الدهر كلِّه لا شكَّ أنها عباداتٌ كسائر البدع، ولا شكَّ أن الله لا يحبها ولا يرضاها.

وإذا قلنا: عبادة المسيح اسم جامع لكل ما يحبه المسيح ويرضاه، وعبادة الصنم اسم جامع لكل ما يحبه الصنم ويرضاه، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه: «من كان يعبد محمدًا...» إلى آخره[1]، فمعناه على هذا: من كان يعمل كلَّ ما يحبُّه النبيُّ ويرضاه؛ فلا ريبَ أنَّ هذا القولَ هذيانٌ قبيحٌ، وهراء شنيع، وقع هذا الخطأ من كبير، ونقله اللاحقون بدون تفكيرٍ استعظامًا لقَدْرِه فهو أميرٌ، تقبَّلَ الله مِنَ الجميع حُسْنَ نيَّاتهم، وجزاهم الله خيرًا.

فيا أيها المؤمنون اتَّقوا الله، قدِّموا بيانَ رسولِ الله؛ قال الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها في وفاة النبيِّ ﷺ، وفيه خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنها قوله: «ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات].

❁ ❁ ❁

صَدَرَ في بلادنا كتابٌ باللغة المليبارية باسم: «العبادة ـ دراسة جامعة»، يقالُ: إن صاحبه عالم كبير! لم يذكر فيه حديث رسول الله ﷺ في بيان العبادة، وإنما حاول إيهام القراء أن العبادة موضوع غير مفهوم، وصرح أنَّا نعبد الله وما نعرف ما العبادة! وَمثَّلَ لذلك بأمثلةٍ منها قوله: نحن ننام ولا ندري ما النوم!

وقد تمادى في مثل هذا الهذيان السخيف، وصرح أنه ليس في القرآن ولا في الحديث بيانها، وقد راجعتُ الكتاب بإمعانٍ فلم يظهر لي منه في معنى العبادة شيء؛ وأنا بفضل الله موفَّقٌ لعُمْقِ النَّظر، ولله الحمد، وإنما أنظر إلى القول ولا أنظر إلى القائل، ولا أستطيع أَنْ أَفْقَهَ بقلب غيري(١)، إلا إذا كان القائل رسول الله ﷺ فقوله مقبول كله، وأقوال غيره منها مقبول ومنها مردود، فانظروا أيها الناس هل يعقل أن يأمر الله بشيء ثم يُعيده مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ولا يبيِّنه الله للرَّسول ولا يبيِّنه الرَّسولُ للناس، هذا والله مستحيلٌ،

(١) سياق الكلام يدلُّ على أن مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه تأمل الكتاب المشار إليه، فلم يجد فيه في معنى العبادة شيئًا، مع أنها موضوع الكتاب، ويؤكد الشيخ المليباري ذلك بما مدح به نفسه من التوفيق لعمق النظر، ومن النظر إلى القول، وعدم التعصب والتحامل. كل هذه الأسباب كافية لفهم ذلك الكتاب على الوجه الصحيح. ومدح الإنسان نفسه قبيح، لكنه يجوز أو يحسن لأمر عارض، وبالله التوفيق.

والصحابة الذين هم أحرص الناس على فهم القرآن لم يسألوا عنه الرسول ﷺ، وهذا أيضًا مستحيل، فهل هذا الرجل خادم الدين أو هادمه؟ كما أني لا أدري أجاهل هو أم متجاهل، وهو أمير الجماعة الإسلامية بكيرلا سابقًا، صدق القائل: ومن ابتغى الهدى من غيرهما ـ أي الكتاب والسنة ـ أضله الله.

وللأستاذ المودوديِّ كتابٌ بالأردوية في بيان معنى العبادة، لم يذكر فيه بيانَ رسولِ الله ﷺ، وأتى ببيان من عنده، ابتكره هو، زاعمًا أن العالم الإسلاميَّ كان في معنى العبادة على خطإٍ كبير، وفي غفلة طويلة قرونًا كثيرة، كما صرح به في مقدمة الكتاب، وقد رَدَّ عليه الأستاذ حسن إسماعيل الهضيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر في كتابه «دعاة لا قضاة»[1] ولكنه أخطأ في تفسير العبادة، فقد فسَّرها في مواضع من الكتاب بقوله: «الإطاعة المطلقة». وهذا خطأ كبير؛ لأنَّ مطيعَ الرسول مسلمٌ وعابدَ الرسول كافر باتفاق المسلمين، وقد كلَّفنا الله أَنْ نطيعَ الرسول إطاعةً مطلقةً.

(١) يرى بعض الباحثين أن هذا الكتاب ليس من تأليف الهضيبي، وإنما ألَّفه بعض علماء الأزهر وغيرهم لمواجهة مظاهر الغلو والتطرف التي ظهرت في صفوف الإخوان المسلمين، وخاصة عند سيد قطب والمتأثرين به، بعد النكسة المريرة التي أصابتهم بانقلاب رفاق الثورة ضدَّهم. انظر بحث علي العميم: «هل ألّف المستشار حسن الهضيبي: دعاة لا قضاة؟ بحث في كتاب مغموز النسب» المنشور في مجلة «المجلة» اللندنية في ١٧/ ١٢/ ٢٠١٢م. أما كتاب المودودي المردود عليه فهو: «المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله والرب والدين والعبادة».

وقد ردَّ على الأستاذ المودوديِّ العلامةُ سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني النَّدْويُّ حفظه الله رئيس ندوة العلماء بلكهنو في كتابه: «التفسير السياسي للإسلام على ضوء مقالات الأستاذ المودودي والأستاذ سيد قطب»[1]، وأكتفي الآن بهذه الإشارة وسأَمرُّ عليه بعد إن شاء الله.

وهذا التوحيد الذي سبق بيانه نتمسَّك به نحن ـ السلفيين في كيرلا الهند ـ ونعضُّ عليه بالنواجذ، عليه نحيا بفضل الله، وعليه نموت إن شاء الله، ونسعى لنشره صابرين بتوفيق الله.

وصلى الله على محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

* * *

بقي لنا ذكر معنى «أشهد»، فأقول: إن من الناس من اتخذ إلهين اثنين، ومنهم من اتخذ آلهة ثلاثة، ومنهم من اتخذ أكثر، كما أن منهم من اتخذ إلهًا واحدًا، وكلهم شهدوا بما عندهم، فقول أحدنا «أشهد» إعلانٌ بأنِّي من الشاهدين بوحدانية الله ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران].

فأول الشاهدين هو الله وكفى به شهيدًا، ثم الملائكة وأولو العلم، وقد شهد بضدِّه الشياطين وأولو الجهل.

ومعنى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: أقام الحجة وهي كثيرة، فكل ما في

(١) وهو من أنفس كتب الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد قوبل بالإهمال والتجاهل، لهذا قمنا بإعادة طباعته ونشره.

الكون يدل على وحدانية الله دلالة طبيعية، ألا ترون أن الأبكم يتجه قلبه إلى الله فيشير بإصبعه السبابة إلى السماء ففيه دلالة على أمرين:

أولهما: وحدانية الله؛ لأنه يشير بإصبع واحدة.

والثاني: علوه؛ لأن الإشارة إلى السماء.

فانظروا من أين دَرَسَ هذا؟! لم يدرس من أحدٍ، ولكنها الفطرة، وواقع المعراج أوضح دليل على علوه تعالى؛ فإن الله استدعاه إلى مقام فوق السماوات العلا وحادثه.

ومعنى ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: أن الله لم يفعل شيئًا من الظلم لإقناع الخلق بوحدانية الله ولإخضاعهم له، ولكن أعلن الحرية المطلقة: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الشورى: ٨]، ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت].

خلاف ما عليه الملوك والأمراء والقادة من أنهم إذا أرادوا البقاء على مناصبهم يصبون على المخالفين والمتهمين، بل وعلى جميع ذويهم من الأبرياء الذين لم يخطر ببالهم شيء من المخالفة؛ يصبون عليهم أنواع العذاب كما فعل نمروذ وفرعون وأبو جهل والخميني وصدام حسين وهتلر وموسوليني و و و، وقد شهد العالم بما فعلوا، فما دام شأن الدنيا هكذا فلو لم تكن بعدها الآخرة فأَعْظِمْ به خسرانًا لا مثيلَ له، فللّه آلاف الحمد والشكر على إعداد

الآخرة حتى يتسلم كلٌّ واحدٍ حقَّه، نسأل الله خيرَها ونعوذ به مِنْ شرِّها.

فيا أيها المؤمن أبشر، فإنا إذا أردنا أن نصدر قائمة لأسماء هؤلاء الشاهدين بوحدانية الله فأولهم رب العرش العظيم، ثم جبريل والملائكة الذين لا يحصي عددهم إلا الله، ثم أشرف الخلق محمد ﷺ وجميع الأنبياء وأتباعهم، فأَعْظِمْ بشرف هذه القائمة، فإذا كان اسمك موجودًا فيها فطوبى لك وحسن مآب.

فإذا قال أحدنا «أشهد» فمعناه: أعتقد اعتقادًا جازمًا لا تشوبه شبهة، ولا يكدر صفوه جدال المعاندين والمشككين، ولا يفك متانة عروته إغراء الموسوسين، بل أوقن إيقانًا يؤثِّر في قولي وعملي، وخُلُقي ومعاملاتي، وفي كل حركاتي وسكناتي، وفي حياتي كلها، قلبيًّا وقوليًّا وبدنيًّا، وأُعلنُ أَنْ «لا إلٰه إلا الله»، فإذن لا بدَّ أن يكون شأنُ من قال: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله» كلُّه مؤيِّدًا لهذا المعنى، فيكون قلبه مقبلًا على الله في كل حال لجلب الحاجات ودفع الآفات، وهذا أصلُ الدعاء فلا يدعو أحدًا من دون الله أو مع الله، ولا يعمل شيئًا إلا على أساس دعاء الله، ويترك دعاء غير الله، ويترك كلَّ عمل على أساس دعاء غير الله، فإذا قال: يا عيسى أغثني. أحبط الشهادة وألغاها وخرج عن دائرة الإسلام.

فإن يكن الناس صادقين في هذه الشهادة فأول واجب عليهم

محو هذه المباني المشرفة على قبور الصالحين، فإن كانوا يعتنون برعايتها فشهادتهم كاذبةٌ.

يظهر هاهنا معنى الحديث الذي ثبت في الصحيح: «**من قال: لا إلٰه إلا الله دخل الجنة**»(١). فمعنى «**دخل الجنة**» استحق دخولها؛ لأن هذا الدخول ليس واقعيًّا في الدنيا، وإنما هو مرجوٌّ في الآخرة كما لا يخفى، فثبت له الحقُّ، فإذن يجب عليه أن يتَّقي حبوطَ هذا الحقِّ، وإذا لم يلتزم بلوازمها أو إذا فعل نواقضَها بطل حقُّه ولغا، كما هو الشأن في جميع الأمور.

(١) أخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان بن عفان ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إلٰه إلا الله، دخل الجنة».
وأخرج البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث أنس بن مالك: أن النبي ﷺ، ومعاذ رديفه على الرحل، قال: «يا معاذ بن جبل»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك! قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: «ما من أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار»، قال يا رسول الله: أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذا يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا.
وأخرج البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذرٍّ ﵁ حدثه قال: أتيت النبي ﷺ فقال: «ما من عبدٍ قال: لا إلٰه إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة».
وأخرج البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) حديثًا طويلًا، فيه: فقال قائل منهم: أين مالك بن الدُّخْشِن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق، لا يحب الله ورسوله! فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل له ذلك، ألا تراه قد قال: لا إلٰه إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!» قالوا: الله ورسوله أعلم! أما نحن فوالله لا نرى ودَّه ولا حديثه إلا إلى المنافقين. فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّ الله قد حرَّم على النَّار من قال: لا إلٰه إلا الله، يبتغي بذلك وجهَ الله».
وفي الباب أحاديث كثيرة.

إن الطالب إذا استوفى الشروط سمح له بدخول الكلية، ثم إذا خالف النظام يطرد من الكلية، والمسافر إذا أخذ تذكرة الطائرة فله حقُّ الركوب، ولكن إذا لم يؤكِّد حجز المقعد حسب النظام يحبط حقُّه ولا يعترض عليه أحد.

فلماذا يتسرَّع بعض الناس ـ ممن تهتم نفوسهم الخبيثة بزعم أن في صحيحي البخاريِّ ومسلم أحاديثَ موضوعة! ـ إلى تكذيب هذا الحديث المتَّفق عليه متشبثًا بأَنَّ القرآنَ اشترط لدخول الجنة العملَ الصالح مثل قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة]، وقد ورد مثل هذا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ في آيات معدودات بالمئات.

وقد اغتر بزخرف قولهم ولمعان فصاحتهم بعض الناس، فدعايتهم هذه لا شكَّ أنها من باب إتيان الشيطان من وراء الإنسان، فهم شياطين الإنس أعداء الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

مع أن من المعلومات الضرورية التي لا يختلف فيها أحد أن من نطق بالشهادة فمات في الحال أي لم يجد وقتًا لأداء اللوازم واجتناب النواقض فهو من أهل الجنة بفضل الله، بدليل أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ لعمِّه أبي طالب وهو يُشْرِفُ على الموت: «**يا عم؛ قل: لا إلٰه إلا الله.**

كلمة أحاجُّ لك بها عند الله»[(١)] . فلم يطع ومات مخذولًا ، ولو أطاع الرسولَ ﷺ جَبَّ ما قبله ونجا، والله حزنت على موته كافرًا أسوةً لحبيبي رسول الله ﷺ، فتبًّا لمن أَلَّفَ كتابَ: «أَسنَى المطالب في نجاة أبي طالب» وهو السيدُ أحمدُ زيني دحلان، مفتي الشافعية بمكة، إمامُ أعداء الوهابيين المؤمنين حقًّا، صاحب كتاب: «الدُّرر السَّنيَّة في الردِّ على الوهابية» الكتاب الذي عليه معول «السنيين» في كيرلا، وقد ألقم أتباعَه الأحجارَ الأستاذُ العلامة بشير السَّهْسَوانيُّ الهنديُّ رحمه الله في كتابه: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان»[(٢)].

وهذا آخر الكلام عن الطائفة المعتدلة التي ترجو أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأنا خادم الطائفة بفضل الله.

❊ ❊ ❊

وهناك طائفتان: إحداهما مُفَرِّطة (بتشديد الراء)، والأخرى مُفْرِطة (بتخفيف الراء):

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (١٦).

(٢) أحمد بن زيني دحلان (١٢٣٢-١٣٠٤/ ١٨١٧-١٨٨٦)، ومحمد بشير بن محمد بدر الدين السهسواني الهندي (١٢٥٠-١٣٢٦/ ١٨٣٤-١٩٠٨). «الأعلام» للزركلي ١/ ١٣٠، و٦/ ٥٣.
وقول المؤلّف: (الوهَّابيِّين) هو علىٰ سبيل الحكاية، وإلَّا فإنَّ أَتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من تلامذته وأنصاره والمستفيدين من دعوته الإصلاحية لا يلقبون أنفسهم بهذا اللقب، ولا ينتسبون إلى شخص أو جماعة أو بلدٍ، بل نسبتهم وانتسابهم إلىٰ أهل السنة والجماعة والسلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من أئمة الدين.

فالأولى ظهر من أقوالهم وأحوالهم أنهم يعتقدون أن معنى الإله: الربُّ، فمعنى الكلمة عندهم: لا ربَّ إلا الله. فقد وجدناهم يدعون أولياء الله ويبنون على قبورهم وينذرون لهم ولها و و و، فأنكرنا عليهم ذلك فقالوا: لا ندعو أولياء الله على اعتقاد أنهم قادرون على قضاء حاجاتنا، بل نعتقد أنهم شفعاؤنا عند الله، ولو اعتقد إنسان أن الأولياء قادرون فهو كافر، فهذا الاعتقاد بربوبية الله إذا رسخ في القلب أصبح مؤمنًا وكفاه به، ثم لا يضرُّ دعاء الوليِّ وما يتبعه من النذر والنحر ورفع القبر والاعتكاف عنده وإيقاد السراج والبخور. وشأن هؤلاء مؤسف جدًّا وعجيب، يعملون كل هذا باسم الإسلام والسنة ويزعمون أنهم سُنِّيُّون، والسنةُ عندهم ليستْ سنةَ النبيِّ بل سنة من سبق من آبائهم، ولتربية الطلاب على هذا أسسوا «مركز الثقافة السنية» قرب كليكوت عاصمة مليبار، وللدعوة إليه خرَّجوا الشباب فهم منتشرون في الأرض قائمين بهذه الدعوة، وأسسوا مركزًا آخر «مركز التربية الإسلامية»، وهذا مثل الأول يعتني بتربية الطلاب على دعاء أولياء الله، وهذان المركزان متَّحدان في المبدأ ولكن بينهما شيء من الخلاف في القيادة والاقتصاد.

وهناك «جامعة نورية» سموا خريجها «فيضي»، وكلية دار السلام سموا خريجها «دارمي»، ولهم مدارس ومعاهد وكليات ولهم طواغيت من العلماء.

وقد بلغ طغيانهم إلى زعم أن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا يفيد الحصر، فقد صدر من كلية دار السلام كتاب باسم «التوحيد ـ دراسة شاملة»؛ فسَّروا فيه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بدون حصر، فنشرت

الطائفة الأولى في المحاضرات والنشرات سؤالًا حول هذا، فأصدروا الجواب في الطبعة الجديدة أَنَّ الإمامَ أبا حيَّانَ ذكره، فلِمَ آثروا وقدموا هذا التفسير ورفضوا تسعة وتسعين في المئة بل أكثر؟!

قال ابنُ الورديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالْجُعَلْ(١)

ومع كل هذا فإن جمهور الناس وراءهم ويعتزون بأغلبية الأتباع، فنسألك اللهم أن تُحِقَّ الحقَّ وتنصر أهله، وتمحق الباطل وتخذل أهله، فقد أصبحنا مهدَّدين فانصرنا على القوم الكافرين،

(١) صدر البيت: «أَيُّهَا العَائِبُ قَوْلِي عَابِثًا». انظر: شرح لامية ابن الوردي المسمى «فتح الرَّحيم الرَّحمن» (ص٣٣٦) للشريف مسعود بن حسن القِناوي، ط. دار المنهاج.
وينبغي التنبيه هنا على أن أبا حيَّان الأندلسي (ت: ٧٤٥)، لم يخالف ما تقرَّر من الحصر في عبادة الله، ولكنه خالف في دلالة تقديم المفعول على التخصيص، فردَّ على الزمخشري دعوى التخصيص، محتجًّا بقول سيبويه بأن التقديم يدلُّ على الاهتمام والعناية. راجع تفسيره: «البحر المحيط»، دار الفكر، بيروت: ١٤٢٠، ٢٩/١. ولا يلزم من هذا نفي الاختصاص، لهذا نجده يقول ٥١٢/٤، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام]: «ومجيئه هنا مقدمًا على فعله دليل على الاعتناء بذكر المفعول، وعند الزمخشري: أن تقديمه دليل على الحصر والاختصاص، ولذلك قال: بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة. والاختصاص عندنا والحصر فُهم من سياق الكلام، لا من تقديم المفعول على العامل».

اللهم العن المفترين عليك المحرِّفين لكلامك، اللهم اهْدِ قومنا فإنهم لا يعلمون.

وإن أخطر المشاكل أنهم يقولون ويعملون كل هذا باسم الإسلام، فصار الناس من كل ملَّةٍ يظنون أن دعاء أولياء الله وما إلى ذلك من الإسلام، فلو أن جماعة من الناس يمشون ليلًا فيما بين بيوت لا يعرفون سكَّانها أمسلمون هم أم لا، فسمعوا صوتًا ينادي: يا شيخ محيي الدين أغثني. أو: يا أهل بدر أغيثوني. يقولون: هذا بيت مسلم والدليل هذا النداء!

فلو قال واحد: ليس هذا دليلًا على الإسلام بل على الكفر، واشتدَّ الخلاف فذهبوا جميعًا إلى مجلس العلماء السنِّيين فالجواب الباتُّ: أن سكان ذلك البيت مسلمون وفوق ذلك فهم سنيون.

وُجِّه إلى عالم كبير من دعاتهم المعروفين سؤال: «يقول الوهابيون: من نادى يا شيخ محيي الدين أغثني كفر»، وماذا تقولون؟ فأجاب: من نادى: يا شيخ محيي الدين أغثني أصبح سنيًّا. فقيل: السني والكافر كلمتان مترادفتان! إن وثنيًّا مثقفًا دخل في الإسلام على بصيرة فدخل في دار المسلمين الجدد فاختتن، وقد كان برِجْله قرح؟ فنصحه القَيِّمُ بتناول زيتِ سراج مقبرة الوليِّ فلانٍ! فقال الرجل: اعتزلتُ قومي الذين يستشفون ببركة زيتِ سراجِ معبد الأوثان، فهل عندكم مِثْلَه يا أهلَ الإسلام؟

والواقع أنَّ السنِّيين يكتفون لقبول وثنيٍّ أو مسيحيٍّ إلى

الإسلام بأن يترك دعاءَ آلهته في ديانته الوثنية ويدعو أولياءَ الله في الديانة الجديدة السنيَّة!

❁ ❁ ❁

أما الطائفة المفْرِطة (بتخفيف الراء أي الذين تجاوزوا الحدِّ) فهي الجماعة الإسلامية[١] التي أسَّسها في الأربعينات الأستاذ أبو الأعلى المودوديُّ في جمال بوربتانكوت بنجاب الهند، وهو زعيم صحفيٌّ سياسيٌّ، طويل الباع في الأدب الصحافي الأُرديِّ، صاحب القلم السيال، وقد نال بزخرف قوله ولمعان فصاحته في الأردية قبولًا محسودًا، وانتشرتْ جماعته في جميع أنحاء الهند وباكستان، ومن أهمِّ مراكزها ولاية كيرلا.

وقد اتخذ في المنصورة لاهور منظمةً باسم دار العروبة لتعريب مقالاته وكتبه، وانتشرت هذه المنشورات المعرَّبة في البلاد العربية، وتأكدت صلته بالإخوان المسلمين بمصر والشام للموافقة في وجهة النظر السياسيِّ، فكانوا له خيرَ أعوان، واستقبلوه بعين الرضا والاحترام، ووافقوا على كل ما صدر منه من الآراء دون تمييزٍ بين الحق والباطل، وقد عجبتُ من سكوتهم على التسمية بأبي الأعلى، فالأعلى بالإطلاق هو الله ربُّ العرش العظيم كما نقول: سبحان ربي

(١) يعني: أنهم أفرطوا وبالغوا غاية المبالغة في مسألة الطاعة والحكم، وذلك لأسباب سياسية، لأن قضية الطاعة تمثل ـ عندهم ـ المرجعية الإسلامية لمشروع إقامة العدل الدنيوي مقابل المرجعية الغربية، ومن هنا تبرز أهميتها، أما تحقيق توحيد العبادة، والاهتمام به، والدعوة إليه؛ فهم فيه مفرِّطون، له مضيِّعون، عن الدعوة إليه معرضون.

الأعلى. وكما قال الله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]. وأما بالتقييد فجائز كما قال الله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران]، وكما قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه]، وذلك في معارضته لفرعون، وأما الأعلى بإطلاق فهو رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز المقتدر، فالتسمية بأبي الأعلى غير لائقٍ بالمؤمن، لم يخطر في باله أهمية تبديله بعبد الأعلى مثلًا، وهكذا وقع منه الغلوُّ والإفراط في كل شيء، ويا ليت شعري! كيف سكتوا على هذا؟ وقد حُكيَ أنه سأله بعضُ الناس في الرياض: يا أستاذ؛ هل لك ولد باسم الأعلى حتى تكنى بأبي الأعلى؟ فلم يقل شيئًا. والواقع أنه ليس كنية؛ بل علم.

ثم إن هؤلاء الطيبين من العرب الذين استعظموا قدره بسبب زعامته للجماعة تولَّوا نشر كتبه في الأرض بدون فحصٍ عن المحتويات، وفيها أباطيلُ كثيرةٌ ومفتريات على الله وعلى رسوله، فصار هذا عند الناس دليلًا على صحَّة مزاعمه وحسن موقفه وسلامة اتجاهاته!

وقد استطاع المودودي وأتباعه بثرثرتهم المتشعبة الطويلة أن يوهموا الناس أنهم هم وحدهم القائمون بالدعوة الإسلامية في الهند وباكستان، وقد عرَّفوا أنفسهم إلى الناس أنهم كاملو الإسلام، وصرحوا بأن السلفيين ليس عندهم من الإسلام إلا بعضه، ومن التوحيد إلا ثلثه؛ فإن التوحيد عندهم مؤلَّف من ثلاثة أمور: إفراد الله بالإطاعة، وإفراد الله بالعبدية (الرق)، وإفراد الله بالألوهية، وقالوا: إن السلفيين ليس عندهم إلا هذا الثالث، وأما

إفراد الله بالإطاعة وإفراد الله بالعبدية فالسلفيون لا يقولون بهما.

فأقول: نعم، لا نقول بهما، ولماذا؟ لأنَّ رسول الله ﷺ لم يقل بهما، ولأنَّ الصحابة لم يقولوا بهما، ومذهبكم هذا ليس في الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ.

فجوابهم: كيف تقول هذا والحقُّ أن الذي قاله مولانا المودودي نفس ما جاء به محمد ﷺ لم يزد شيئًا ولم يغيِّر؛ لأن الدينَ معناه الدولة (state)، والشريعةُ معناها دستورُ الدولة، والعبادةُ معناها امتثال دستور الدولة. (انظر: الخطبات في باب أهمية الجهاد)[١].

ولأن معنى لا إلٰه إلا الله: لا مطاع ولا سيد ولا معبود إلا الله. فهذه أصول ثلاثة في التوحيد، فالذين يقولون بها جميعًا كاملو الإسلام، والسلفيون قائلون بالثالث فقط ولا يوافقون في الأول والثاني بل يعارضون فيهما فهم ناقصو الإسلام جدًّا، هداهم الله. ولأن الدِّين بلا دولة كمثل خريطة دار لم تبن في الأرض (خطبات).

ثم أطنب القول انطلاقًا من هذا المبدأ، وزعم أن التمسك

(١) وقال المودودي في «المسلمون والصراع السياسي الراهن»: «معنى الدِّين في هذا العصر «الحكومة» State تقريبًا، أَنْ يَسْتَسْلِمَ الناسُ أمامَ قوَّةٍ جبَّارةٍ قاهرةٍ ويذعنوا لها، هذه هي الحكومةُ، وهذا هو معنى الدِّين أيضًا. والدِّينُ الحقُّ هو أن يستسلم المرءُ أمامَ قوَّةِ الله تعالى، وأَنْ يعبدَه ويطيعه، معرضًا عن طاعة الآخرين بما في ذلك نفسه. في الحقيقة جاء رسول الله ﷺ بنظام دولةٍ من عند الله، لا مجالَ لخيار الإنسان فيه، ولا مجالَ لشخصٍ أَنْ يحكم على عباد الله تعالى. الحكم والأمر لله الواحد القهَّار فقط». راجع: «التفسير السياسي للدِّين» لوحيد الدين خان، ص: ١٤٤.

بالدين بلا دولة مستحيل، وبعض عباراته يدل على أن الدين والدولة كلاهما واحد، وبعض العبارات يدل على أنهما متغايرتان، فإن يكن الدين هو الدولة فدين الإسلام ـ عندهم ـ دولة الإسلام، وهي مفقودة في الهند بل في الأرض كلِّها، فأول الواجبات إقامة الدولة! وقد بلغ هذيانهم وهراؤهم إلى أن قال بعضهم: قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠] إلخ، وهذا الملك الآن إنما هو في السماوات، وأما في الأرض فمفقود، فيجب علينا أولًا وقبل كلِّ شيء إنشاؤه لله، فصار الأمر كما في المثل السائر «بلغ السيل الزبى».

واستدلوا لمزاعمهم هذه بكلمة «لا إلٰه إلا الله»، وبمثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ زاعمين أن العبادة لها ثلاثة معان: الإطاعة والعبدية والتأله، وقالوا: إن جميع هذه المعاني الثلاثة معتبرة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأمثالها، وفي «لا إلٰه إلا الله»، والمراد بالعبدية الرق أي كون الإنسان رقيقًا، وربما يستبدلونها بكلمة العبودية، وليس المراد العبادة لأنها ذكرت على حدة.

أقول أولًا: إنَّ هذا المبدأ الأساسيَّ ـ التثليث في معنى العبادة ـ لا عهد للناس بمثله من أول الدُّنيا إلى زمن المودوديِّ، وكلُّ لغةٍ في الأرض يكون لبعض كلماتها معنيان أو أكثر، فالواجب أن ينظر أيهما أو أيها يناسب المقام فيعيَّن، وأما اعتبار كل المعاني فلم يسبق بزعمه أحد من العقلاء الفاهمين.

وشأن الأستاذ المودوديِّ غريبٌ ورأيه فاسدٌ:

إن كلمة الكفار وردت في القرآن بمعنى الزُّراع: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ

أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، فهل يصحُّ أن يراد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٨]؟!

إن كلمة صوم وردت في القرآن بمعنى السكوت: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا﴾ [مريم: ٢٦]، فهل يصح إرادة هذا المعنى في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]؟!

ومن معاني كلمة العين الجاسوس، فهل تصحُّ إرادته في قوله: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢﴾ [الغاشية]؟!

وثانيًا: ننظر أي هذه المعاني الثلاثة الإطاعة والعبدية (الرق) والتأله يناسب المقام، لا شكَّ أنَّ العبادة يجب إفراد الله بها ولا يجوز صرف شيء منها لغير الله على أيِّ حالٍ، فلازم تفسير العبادة بأمرٍ شأنه هذا، وليس هو الإطاعة؛ لأن الإطاعة لله وللرسول وللأبوين، ولو فسَّرنا العبادة بالإطاعة فقلنا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ أي نطيعك ربَّنا وحْدَك ولا نُطيعُ غيرَك، لا يصحُّ؛ لأنه يفيد أن مطيع غير الله مشرِكٌ. والحقُّ أن مطيع الرسول مسلمٌ وعابدُ الرسول كافر باتفاق المسلمين، حتى أن المطيع في معصية الله إنما يكون عاصيًا لا مشركًا، إلا إذا صدر الأمر بالسجود للصنم ـ مثلًا ـ فأطاع يكون مشركًا، ولكن إذا سجد بدون أمر أحدٍ بل منبعثًا من نفسه، فهل من شكٍّ في أنه مشرك؟! فإذن لا أثر للأمر ولا للإطاعة، وهذا واضحٌ لكلِّ فاهمٍ يفهم أن الاثنين مع الثلاثة خمس، فماذا أصاب عقول هؤلاء؟![(١)]

(١) وخلاصة القول: أن «الطاعة الشركية» أو: «الكفرية» هي شرك أكبر، وكفر =

وإذا نظرنا إلى رحمة الله على العباد بالعفو عما إذا كان الأمر بالإكراه نأسف على فساد عقولهم أكثر، قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦﴾ [النحل][1].

والخلاصة: أن العبادة والإطاعة متغايرتان لا تقومُ إحداهما

= أكبر، مخرج من الملة، حتَّى لو أمكن تصورها من غير اعتقاد أو استحلال، مثل من يطيع ـ باختياره غير مكره ـ في عبادة غير الله، أو سب الله ورسوله، أو الطعن في الدين. أما «طاعة المعصية» فما دون ذلك، ولا تكون «شركية وكفرية» إلا بالاستحلال.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا ـ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:
أحدهما: أن يعلموا أنهم بدَّلوا دين الله فيتَّبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، اتِّباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دينَ الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يُصلُّون لهم، ويسجدون لهم. فكان من اتَّبع غيره في خلاف الدِّين، مع علمه أنه خلاف الدِّين، واعتقد ما قاله ذلك، دون ما قاله الله ورسوله؛ مشركًا مثل هؤلاء.
والثاني: أن يكون اعتقادُهم، وإيمانُهم بتحريم [الحرام] وتحليل [الحلال] ثابتًا، لكنَّهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب». (مجموع الفتاوى: ٧/ ٧٠).

(١) وجه هذه الحجَّة أن هذا المكرَه قد أطاع من أكرهه، فأظهر الكفر، لكنه لإبطانه الإسلام، ولعدم رضاه بما اضطرَّ إليه من الفعل الظاهر؛ لم يكفر، ولو كانت العبادة والطاعة مترادفتين للزم تكفيره، لأنه لا عذر لأحد في عبادة غير الله تعالى.

مقام الأخرى، فإرادة معنى الإطاعة هنا لا تصحُّ أبدًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فإن تكن الإطاعة عبادة كان يمكنهم أن يقولوا: نحن نعبد الله لأن عبادة الصنم من أمر الله بزعمهم، فافهموا أن تفسير العبادة بالإطاعة خطأٌ كبير، واعلموا أنه لم يرد في القرآن ذكر الإطاعة بالإفراد «أطيعوا الله وحده» أو: «لا تطيعوا إلا الله». وإنما جاء بالتثنية: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، والتثليث: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأما العبادة فلم تذكر إلا بالإفراد، وإذا لم يصرح به في بعض المواضع مثل: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، يحمل على ما صرَّح به كما هو معروف(١).

(١) قال أبو هلال العسكريُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الفروق اللغوية» دار العلم والثقافة، القاهرة، ص٢٢٠: «الفرق بين العبادة والطاعة: أنَّ العبادة غاية الخضوع، ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود، والطاعة: الفعلُ الواقعُ على حسب ما أراده المريد، متى كان المريد أعلى رتبةً ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق، والطاعة في مجاز اللغة تكون اتِّباع المدعوِّ الداعي إلى ما دعاه إليه، وإن لم يقصد التبع كالإنسان يكون مطيعًا للشيطان، وإن لم يقصد أن يطيعه، ولكنه اتَّبع دعاءَه وإرادته».

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقال تعالى في الخوف والخشية والتقوى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور]، فأثبت الطاعةَ لله والرسول، وأثبت الخشية والتقوى لله وحده، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿...إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح]؛ فجعل العبادة والتقوى لله وحدَه، وجعل الطاعةَ للرَّسول؛ فإنَّه من يطع الرسولَ فقد أطاع الله»، وقال: «فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله =

وإن الطامة الكبرى أن تفسير العبادة بالإطاعة يؤول إلى إبطال التوحيد؛ لأن المطاعين كثيرون، والمعبود واحد قطعًا. فيا أيها الناس! أيها المودوديون الإسلاميون! أفيقوا قبل فوات الأوان، واسحبوا منشوراتكم كي يخفَّ وِزْرُ صاحبكم واستغفروا له.

وجدنا هؤلاء يتطاولون في معارضة هذا الحق الواضح وضوح الشمس قائلين: إن الله يقول: ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وقطعوا أن معناه: لا تطيعوا، وصرح في «المصطلحات الأربعة»: أن الشيطان لا يعبده أحد في الأرض[1]. ناسيًا ما ذكره في نفس الكتاب في بيان الطاغوت أن الشيطان طاغوت يُعْبَدُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر]، والواقع المشاهد بالأبصار أن الشيطان معبود في الأرض كثيرًا وله معابد حتى في كيرلا، وأن تفسير العبادة هنا بالإطاعة ذكره أكثر المفسرين، وليس فيه محذور، ولا ينشأ منه شيء، أما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فالمحذور كبير بسبب الحصر، وقد سبق ذكره. وإن هذه الثرثرة كمثل

= ورسوله، والإرضاء لله ورسوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، والإيتاء لله ورسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩]، وأما العبادة، وما يناسبها من التوكل، والخوف، ونحو ذلك؛ فلا يكون إلا لله وحده». راجع: «مجموع الفتاوى» ١/ ٧٢، ٣/ ١٠٨، ١٠/ ١٥٣، ٢٣٥، ٢٤/ ٣٣٨.

(١) قال المودودي في مبحث (العبادة بمعنى الطاعة): «الظاهر أنه لا يتألَّه أحدٌ للشيطان في هذه الدنيا، بل كلٌّ يلعنه ويطرده من نفسه، لذلك فإن الجريمة التي يصِمُ بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة ليست تألُّههم للشيطان في الحياة الدنيا، بل إطاعتهم لأمره، واتِّباعهم لحكمه، وتسرعهم إلى السبل التي أراهم إياها».

ما لو قلنا: إن فلانًا ليس في كيرلا. فقال بعضُ الحمقَى: هذا خطأٌ؛ لأَنَّه في بِنْجاب. فالواجب عليكم ـ أيها الناس! ـ الإجابة عن الاعتراض الذي ذكرنا حول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إن استطعتم(١).

وثالثًا: تفسير العبادة بالرِّقِّ لا يعرفه الرسول ولا أصحابه؛ لأن الرسول لم ينه عن الرقِّ، والصحابة لم ينهوا، وقد كانوا يتخذون أرقاء وكان بعضهم رقيقًا، ومن ذا الذي لا يعرف هذا الواقع، وإن يكن هذا مرادًا في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فكيف يقرأ هذه الآية هؤلاء الأرقاء من الصحابة ولا يمكن ذلك إلا كذبًا، وقد قال في «لسان العرب»: «وأما عبْدٌ خدَمَ مولاه فلا يقال: عبَدَه»، ووافق عليه أصحاب المعاجم(٢).

---

(١) مراد المؤلف بهذا: أن تفسير العبادة بالطاعة؛ صحيح في مواضع معينة، وذلك لكون تلك العبادة من نوع الطاعة الشركية، لهذا قال المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أي: لا تطيعوا الشيطان. والغالب أن طاعة الشيطان طاعة شركية، لكن من طاعة الشيطان ما هو معصية وليس كفرًا، كما يقع من المسلم ارتكاب كثيرٍ من المعاصي يكون فيها مخالفًا لأمر الرحمٰن، مطيعًا للشيطان، لهذا قيَّد بعض المفسرين العبادة المذكورة في الآية بالطاعة في الشرك، فقال السُّدِّي في تفسير الآية: «يعني أَلَّا تطيعوا الشيطانَ في الشِّرك»، نقله يحيى بن سلام (ت: ٢٠٠) في «تفسيره»، وقال: «إنهم عبدوا الأوثان بما وسوس إليهم الشيطان، فأمرهم بعبادتهم، فإنما عبدوا الشيطان». وقال ابن الجوزي (ت: ٥٩٧) في «زاد المسير»: «بمعنى تطيعوا، والشيطان هو إبليس، زيَّن لهم الشرك فأطاعوه».

(٢) بل هذا الكلام نقله ابن منظور (ت: ٧١١) في «اللسان» ممَّن قبله من أئمة اللغة، وأقدم من وجدته ذكر هذا هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠) في كتابه: «العين»، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومهدي =

وإن تفسير «عبَد» بقولهم: صار عبدًا؛ يمجُّه الذوق العربي والمعرفة بمبادئ قواعد اللغة؛ لأن عبد متعدٍّ، ولم يرد في القرآن والحديث ولا في الأدب إلا متعديًا، وإن يكن المعنى صار عبدًا فهو لازم بلا شكٍّ، فهذا من وحي الشيطان.

والخلاصة: أن تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود: ٢٦] بقولهم: «لا تكونوا أرقَّاء إلا لله»[1]، تحريف واضح وافتراء على الله؛ لأن الله لم يَنْهَ عن الرقِّ بل أَذِنَ به، وقد ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى في جميع آيات القرآن إلا في مثل ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾ [الشعراء: ٧١]، وذاك لاستحالة الرق للأصنام.

= المخزومي، دار ومكتبة الهلال، ٢/ ٤٨، فالكلام كلامه، حيث قال: «وأما عبَد يعبُد عِبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله. وتعبَّد تعبُّدًا، أي: تفرَّد بالعبادة. وأما عبدٌ خدَم مولاه، فلا يقال: عَبَدَه ولا يعبُد مولاه. واستعبدت فلانًا، أي اتخذته عبدًا. وتعبَّد فلان فلانًا، أي: صيَّره كالعبد له وإن كان حرًّا». ونقله ابن فارس (ت: ٣٩٥) في «مقاييس اللغة»، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت: ١٣٩٩، ٤/ ٢٠٥، مصرِّحًا بنسبته للخليل.

(١) وحقيقة قولهم هذا راجع إلى تفسيرهم العبادة بالطاعة، وجعلهما مترادفتين، فحقيقة العبودية ـ عندهم ـ الطاعة؛ كما يطيع العبدُ المملوك سيِّدَه. وهذا التحريف الجذري لمفهوم العبادة من الأصول الكلية التي نشأت عنها نظرية الحاكمية والتفسير السياسي للإسلام، وخلاصة ذلك: أنهم يعتقدون أن الغاية من الخلق عمارة الأرض وإقامة دولة العدل، ولهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وسنَّ الشرائع، فلا بدَّ للإنسان من الخضوع التام للنبوة والرسالة لتحقيق الغاية التي أرادها الله تعالى، فمهمته في هذه الحياة أن يكون بمثابة العبد المملوك الذي يأمره سيِّده بالعمل فيمتثل أمره، وينفِّذُ ما يطلبه منه.

ورابعًا: إذن فتعيَّن وجوبُ التفسير بالألوهية لأنها هي التي يجب إفراد الله بها، أما الإطاعة والعبدية (أي الرق) فليستا كذلك.

وخامسًا: أن ما زعم المودودي وأتباعه أن العبادة لها ثلاثة معانٍ، وكلُّها مراد في التوحيد؛ مخالف للدين والعقل واللغة.

فيا أيها الناس! ارفضوا هذه الدعوى، واسحبوا كتبكم فيها، وتوبوا إلى الله؛ لأنكم افتريتم على الله الكذب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل]، إن الذي يشير إليه قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ هو الواقع، فقد اتخذتم أول واجب عليكم إقامة الدولة قبل تصحيح العقيدة، وهذا أسوة اليهود، فلمَّا تنجحوا، ولا أدري هل ستنجحون كما نجحوا أخيرًا، والله أعلم. زعمتم أن حكومة الهند طاغوت وإطاعة قوانينها عبادة، وقد فعلتم هذه العبادة! زعمتم أن الدراسة على منهج التعليم الحكومي شرك وقد فعلتم هذا الشرك! زعمتم أن التوظيف تحت الحكومة شرك وقد ارتكبتم هذا! ومثل هذا كثير خالف عملكم قولكم، وبيانه يطول، صدق الله حيث قال: ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾، **هذا هو الأول**.

والثاني: ما يشير إليه قوله: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾، فقد بسط الله عليكم الدنيا بالمال والجاه، وهذا واقع مشهود، لا تظنوا أن هذا إكرام من الله لكم بل هذه نقمة صُبَّتْ عليكم بسبب افترائكم على الله، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

والثالث: ما يشير إليه قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهذا في الآخرة.

فتوبوا إلى الله واستغفروه لكم ولصاحبكم، فلعلَّه لم يُرِدْ إلا الخير ومصلحةَ الإسلام والمسلمين، ولكنَّه وقع في شَرَكِ الشيطان(١).

انظروا إلى ما يقول في «المصطلحات الأربعة»: «لما نزل القرآنُ في العرب. . . كانت كلمة العبادة شائعةً في لغتهم، وكانوا فاهمين لمعناها الأصليِّ الصحيح الشائع بين القوم في عصر النزول ثم ضاقتْ عن المعنى الواسع إلى المعنى الضيِّق الخاطئ الغامض المستبهم، وذلك لسببين:

الأول: قلة الذوق العربي السليم، ونضوب معين العربية الخالصة.

والثاني: أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشؤوا فيه لم يعرفوا المعنى المعروف في المجتمع الجاهلي، وتمادى هذا الجهل إلى اللغويين والمفسرين، فذكروا هذا المعنى الضيِّق الخاطئ في معاجم اللغة وكتب التفسير». (بالاختصار).

أقول: كيف تجرَّأَ الرجلُ على مثل هذا وهو أعجميٌّ ومعرفته بالعربية ضئيلةٌ جدًّا؟! أخبرني أستاذي الشيخ محمد محيي الدين الكاتب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان مع أبي الأعلى على اتصال جيد بالمراسلة البريدية، وقد نقل بعض مقالاته السياسية في الأردية إلى العربية

---

(١) هذا من عدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، وإنصافه، فإنه رغم إدراكه للانحراف الخطير الذي وقع فيه المودودي في أصل أصول الدين؛ فإنه التمس العذر له، ولم يبغ عليه بالتكفير واللعن وسوء القول. ذلك لأن المقصد من الرد عليه، والتنبيه على أخطائه؛ حماية العقيدة، وصيانة الدين، وتحذير المسلمين من اتباعه وتقليده فيما أخطأ فيه أو ضلَّ، نصيحة للأمة، وإبراء للذمة.

فأرسلها إلى صحيفة «الفتح» في القاهرة فنشرها الشيخ محب الدين الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيفة، وكان كلها باسم المودودي، وهذه بداية معرفة العرب بالمودودي، وفي أثناء هذه المدة عثر الشيخ الكاتب في مقالة للمودودي على خطإٍ كبير، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥]، فسَّر ﴿وَتَدْعُوٓا۟﴾ بقوله: «وادعوا»؛ فقد ظنه المسكين أمرًا. ثم شرحه فقال: «إن الله أمر المسلمين بدعوة أعدائهم إلى السلم»، ثم أطال القول كشأنه في كل أمر، فالشيخ الكاتب اقشعَرَّ شعره لما وقع بصره على هذا، فأرسل إلى المودودي كتابًا مفصلًا بين فيه أن ﴿وَتَدْعُوٓا۟﴾ عطف على ﴿تَهِنُوا۟﴾ فيعود فيه «لا» فهو «ولا تدعوا»، فهذا نهي وليس أمرًا أبدًا. وطلب منه الإشعار بتأثره من هذا الكتاب فلم يجب فأعاد فلم يجب، وبهذا تقطَّعت الأسباب.

ويدل على جهله بالعربية زعمه أن العبادة مشتقة من العبد، هل وجدتم أيها الناس أحدًا من أئمة اللغة ذكره، ولعل المسكين ظن أن العبد مصدر كالضرب، والحق أن العبد صفة مشبَّهة لعبُد بضم الباء، والمصدر عبودية، ومنها اشتقَّ العبد.

وبعدما خطَّأَ وجهَّلَ أئمةَ التفسير وأئمةَ اللغة حاول محاولةً فاشلةً لإثبات أن العبادة لها ثلاثة معان، وزعم أنَّ كلَّها مراد في مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وفي «لا إلٰه إلا الله»، فهل بعدما نضب معين العربية في الأرض نبع في «بتهانكوت» في قلب فلان؟! وبعدما قلَّ الذوق العربيُّ السليم في البلاد العربية تَمَّ وكمُلَ وكثر في «بنجاب» في قلب فلان؟!

عفوًا أيها القراء حملني على هذا شعوري بالمسؤولية، والسلام.

قال المودودي بعد إيراد آيات في الأمر بعبادة الله وحده: «فإن المراد بها في جميع هذه الأمكنة معانيها الثلاثة: العبودية، والإطاعة، والتأله».

وقال: «يدعو (الله)[(١)] جميع الجن والإنس إلى أن يعبدوا الله تعالى بكل معنى من معاني العبادة المختلفة، فلا تكن العبدية (الرق) إلا له، ولا يطع إلا هو، ولا يتأله المرء إلا له، ولا تكن حبة خردل من أي تلك الأنواع للعبادة لوجه غير الله».

هذا هو الافتراء على الله، وإنه مما ذكر في سورة الحج من إلقاء الشيطان في أمنية الرسول، ومما ذكر في سورة الأنعام (١١٢) من إيحاء الشياطين بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.

فبالله عليكم ـ يا أتباعَ المودوديِّ! ـ أَن تعثروا علَى[(٢)] الآية التي أمر الله فيها بإفراد الله بالإطاعة أو بالعبدية (الرقِّ)؟! ثبت في «الصحيح»: أنَّ الرسول ﷺ لعَنَ مَن غيَّر منارَ الأرض[(٣)]؛ فما ظنُّكم بمن غير أصل دين الله.

وعلى هذا الزعم الذي صدر من المودوديِّ من أنَّ الذين

(١) هذه الزيادة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان السياق، وفي «المصطلحات الأربعة»: «كذلك بعد أن يقيم القرآن البرهان على كون جميع من عبدهم الناس بوجه من الوجوه عبيدًا لله وعاجزين أمامه، يدعو...».
(٢) في المطبوع: «فيا لله عليكم يا أتباع المودودي إن تعثروا علينا». ولعلَّ الصواب ما أثبتناه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٤).

وُلدوا في الإسلام كانوا لا يعرفون معنى العبادة تمامًا، ردَّ سماحةُ الشيخ العلامة أبو الحسن علي الندوي حفظه الله في كتابه «التفسير السياسي للإسلام» ردًّا قويًّا حكيمًا، وقد أحسن وأجاد جزاه الله خيرًا، كما ردَّ عليه العلامةُ حسن إسماعيل الهضيبيُّ في كتابه «دعاة لا قضاة»، وقد أحسن وأجاد جزاه الله خيرًا، ولكن مع الأسف الشديد أخطأ في تفسير العبادة بالإطاعة المطلقة.

عجيب جدًّا صدور هذا الخطأ منه وهو من صميم العرب عالم كبير، فكيف يفسِّر عبادةَ المسيح وعبادةَ الصنم مع أنَّ مطيع الرسول بالإطلاق مسلم كامل الإسلام، وعابد الرسول كافر كامل الكفر باتِّفاق المسلمين؟!

هؤلاء الإسلاميون المودوديون في كيرلا أصدروا كتبًا كثيرة ومقالات كثيرة لنشر تفسير العبادة بالإطاعة غافلين عن نتيجته الحتمية وهي إبطال التوحيد، وقد جعلوا هذا مبدءً لجماعتهم ثم استنبطوا منه أحكامًا يبرأ عنها دين الله:

منها: زعمهم أن المسلمين الخاضعين لقوانين الحكومة كفَّارٌ.

ومنها: زعمهم أن المتوظِّفين تحت الحكومة كفَّار.

ومنها: أن المرشحين أنفسهم في انتخاب البرلمان أو المجلس التقنيني كفار.

ومنها: زعمهم أنَّ الذين يعطونهم الأصواتَ كفار.

ومنها: زعمهم أن من أطاع هوى النفس كفار.

ومنها: زعمهم أن من أطاع الشيطان كفار، ومثل هذا كثير.

وهؤلاء من الذين ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وبهذا الأمر وحده أصبحوا على خلاف ما زعموا، زعموا أنهم يخدمون الدين ويؤيِّدونه، ولكنهم في الواقع هدموا الدِّين وفنَّدوه، وصاروا ألعوبة بيد الشيطان؛ فالشيطان أراد إبطال التوحيد فزيَّن لهم أن يقولوا: «إنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ معناه نطيعك ولا نطيع غيرك». ثم استنبطوا منه أن مطيع غير الله مشرك، ونسبوه إلى الله افتراءً عليه.

فوالله يا إخواني المودوديِّين إنني جِدُّ آسفٍ على سوء موقفكم، افتريتم على الله الكذبَ أنه أمر بإفراده بالإطاعة، وهذه فريةٌ عظيمةٌ، وإلا فاذكروا لنا تلك الآية، وإن كنتم تقولون: إنَّ الآيةَ قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود: ٢٦]؛ فأقول: لا يصح التفسير بلا تطيعوا لما سبق بيانه.

فلا سلامة لكم إلا بالتوبة بشروطها، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

أخوكم:
عمر بن أحمد المليباري

حزب الشيطان

أبطلوا التوحيد، وأحبطوا الإسلام، إن أهم مبادئهم تفسير العبادة بالإطاعة فقالوا: لا يطاع إلا الله، وزعموا أن مطيع غير الله مشرك، وأن إفراد الله بالإطاعة واجتناب غيره غير مستطاع، والمطاعون بأمر الله كثيرون، وبإباحة الله أكثر، فبطل التوحيد، وهذا يهدم الإسلام، فما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثًا!

﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾

عمر أحمد مليباري

معنى لا إلٰه إلَّا الله
وما وقع فيه من الخلاف

﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾

١٤٠٦هـ ربيع الأول، نوفمبر ١٩٨٥م

أرجو ممن يطلع في هذه الرسالة على خطأ أو باطل
أن يتفضل بالتنبيه جزاه الله خيرًا على عنوان

عمر أحمد مليباري

PULIKKAL, KERALA, INDIA

من يريد الحصول على هذه الرسالة فليكتب على هذه العناوين:

١ ـ سكرتير مكتب التوعية الإسلامية جوغاباي جامعة نغر، نيودلهي، ١١٠٠٢٥ الهند.

٢ ـ سكرتير جمعية أهل الحديث ٤١١٦ أردو بازار دلهي ١١٠٠٠٦ الهند.

٣ ـ سكرتير ندوة المجاهدين، مجاهد سنتر، كاليكوت ٢ كيرلا، الهند.

٤ ـ مبارك بن عمر أحمد المليباري PULIKKAL، كيرلا، الهند.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وجعلنا منهم بفضله وكرمه، آمين.

وبعد: ففي آخر العهد البريطاني في الهند، وحينما كانت الشعوب الهندية كلُّها باذلةً جهودَها ومضحيةً بالأنفس والأموال لطرد الإنجليز من الهند والفوز بالحرية، قامت طائفة من المسلمين بالمشاركة في هذا الجهاد وقفزت على جميع الأحزاب السياسية بمزاعم هي أخطر ما يكون.

مثلًا: زعموا أن من أطاع قوانين الحكومة البريطانية كافر، ولا فرق في ذلك بين أمور الدين وأمور الدنيا. حتى أنه قال لي صديقي القديم الأستاذ محمد علي مؤسس فرع «جماعة إسلامي» كيرلا وأميرها إلى الممات: «إن تكن إقامة الصلاة من الدِّين، فركوب القطار أيضًا من الدين». وقد أطال الأستاذ المودودي في «الخطبات» في إثبات أن الدين معناه الدولة. فدين الإسلام عندهم دولة الإسلام، وهي مفقودة في الهند بل في الأرض كلِّها. فيجب علينا أولًا وقبل كل شيء العنايةُ بتأسيس دولة الإسلام (الحكومة الإلهية) وبذل طاقاتنا وجهودنا في سبيله.

وزعموا أن من توظَّف تحت حكومة بريطانيا كافر مشرك، لأنه

يطيع القوانين المتعلقة بالوظيفة، زيادةً على القوانين العامة التي تشمل كل مواطن. فهذا كفر على كفر (أو كفر مرتين).

وزعموا أن من رشح نفسه في الانتخاب (بارلمنت أو أسمبلي) كافر مشرك، لأنه يقرُّ باستعداده لتنفيذ القوانين الطاغوتية ويعلن بخضوعه للقوانين الوضعية، وكل ذلك كفر. وزعموا أن من شارك في الانتخاب بإعطاء الصوت أو بالدعاية للمرشح كافر مشرك. وزعموا أن من أطاع الشيطان كافر. وزعموا أن من أطاع هوى النفس كافر مشرك. ففكَّرتُ طويلًا: على أيِّ أساسٍ يكفِّرون الناس؟! واستمعت إلى كثير من محاضراتهم، وقرأت عديدًا من منشوراتهم، وهي كثيرة؛ فبدا لي أنهم غيَّروا معنى «لا إلٰه إلا الله».

وتبيَّن عندي أن لو كان معنى الكلمة كما يقولون ينشأ منه هذه المسائل، بل وغيرها من المسائل الغريبة الغالية. وقبل أن نذكر ما قالوا في معنى الكلمة يحسن أن نشرح المعنى الصحيح الذي يعتقده المسلمون فأقول:

معناها: لا معبود بحق إلَّا الله. وبعبارة أوضح: لا أحد يستحق العبادة إلا الله.

فما هي العبادة؟

أقول: لا بيان أحسن وأوضح من بيان رسول الله ﷺ، فإنه تلقى البيان من عند ربه، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩]، ثبت أنَّ رسول ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**». رواه الترمذي عن النعمان بن بشير، وقال: حديث صحيح. ورواه

أصحاب السنن. والآيات الدالة على هذا في القرآن كثيرة. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، فقوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ المراد منها العبادة التي ذُكِرَتْ قبلَه، وهي الدعاء، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف]، فقوله: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ المراد منها العبادة التي ذُكِرَتْ قبله وهي الدعاء كما هو واضح.

وقد صرح القرآن بأن دعاء غير الله شرك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]، فقوله: ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ المراد منه ما ذكر قبله، وهو دعاء غير الله.

الدعاء فطري وبيان ذلك:

إن الإنسان بفضل ما أتاه الله من العقل وهداه النَّجْدين فكَّر في شأنه فرأى أن نشأته تمت بطريقة غيبية لا يملكها أبواه، فضلًا عن غيرهما من سائر الخلق. ثم رأى أن قوامه يتوقَّفُ على ضروريَّات، مثل نزول المطر وهبوب الريح وطلوع الشمس وغروبها. وكل ذلك يجري بتدبير من الغيب. الإنسان ينام فيغيب عنه شيء لا يستطيع وصفه، ولا يعرف أين يغيب. ثم حين يستيقظ يعود إليه ذلك الغائب، فلو لم يعد فماذا يكون شأن هذا الإنسان المتكبِّر الغافل عن نفسه المعتَزِّ بعلومه وباستعلائه على الطبيعة،

المفتخر بوطىء قدميه القمرَ، مع أنَّه لا يملك شعرةً من أشعاره، ولا نفسًا من أنفاسه. إذا دخل نَفَسٌ ثم إن لم يخرج، أو إذا خرج ثم إن لم يدخل؛ انتهى أمره، وهو يبكي ويطلب أن يؤخَّر إلى أجلٍ قريبٍ، ويودُّ لو يُفتدَى بكلِّ ما يملك.

ولم يحتج إلى طول التفكير، ولكنه سرعان ما أيقن أَنْ لا نجاةَ له إلَّا بعطفٍ ورحمةٍ من صاحب هذه القدرة الغيبية. وهذا الشُّعور فطريٌّ لا يخلو عنه أحدٌ من الناس ما دام عاقلًا إلَّا إذا دنَّسَتْه التربية والبيئة واستولى عليه الشيطان. وهكذا أيقن الإنسانُ أنَّه عاجز عن القيام بأمره في هذه الحياة الدنيا. ومع ذلك جاء النبيون فقالوا: إنَّ هناك أمرًا أعظم من هذا، وذلك أنَّ للإنسان حياةً بعد الموت لا تفنى أبدًا، إما في الجنة وإما في النار. وإن سبيل السلامة والفلاح في الحياتين واضح وضوح الشمس، وذلك أن للدنيا والآخرة مالكًا يدبِّر شؤونهما كيف شاء، فالانقطاع والالتجاء إليه بتقديم الرغبات والشكاوى مع التقرب إليه بما يحبه ويرضاه هو السبيل الوحيد. فلا سلامَة للإنسان إلَّا بدعاء من يستجيب له. فإذا توجَّه بالدعاء إلى من يستجيبُ له فقد استقام وسَلَكَ سبيلَ الرَّشاد، وإذا توجَّهَ إلى مَنْ لا يستجيب له فقد ظَلَمَ نفسَه وصار إلى الهلاك والعذاب الأليم الدائم. هذا هو الدُّعاء الذي ذكر الرسول ﷺ أنه هو العبادة، فمن قال: «اللَّهم أَغِثْني» فقد عبد الله، ومن قال: «يا محي الدين أغثني» فقد عَبَدَ محي الدين، لأن الداعي يعتقد أنَّ المدعوَّ يسمع ويقدر على الإجابة بطريقة غيبيَّة، وأما إذا قال للشرطيِّ عند وقوعه في قبضته: يا سيدي أغثني! فليس بدعاء ولا

عبادة، لأن الشرطيَّ يسمع مباشرةً بطريقة عادية، ويخلِّي سبيلَ المستغيث إن شاءَ بطريقة عادية ظاهرة، فالفرق بين الطلب الذي هو الدعاء والطلب الذي ليس بدعاءٍ واضحٌ. فالأول منشؤُه الاعتقاد الغيبي، والثاني ليس كذلك.

فإن قيل: إن جملة «الدعاء هو العبادة» تفيدُ الحصرَ، لأنها معرَّفة الطرفين مع الفصل بالضمير، فيفهم من الجملة أَنَّ غير الدعاء ليس بعبادةٍ، وليس الأمرُ كذلكَ، فإنَّ هناك عباداتٍ عمليَّةً وقوليَّةً وقلبيَّةً، وكذلك العبادات السلبيةُ مثل: ترك الزِّنا، والخمر، والرِّبا، وغيرها من المنهيات.

فالجواب: لا شيء من العبادات إلَّا وروحها والباعث عليه هو الدعاء، ولولا ذلك لا تكون عبادةً. مثلًا إن الصلاة أفضل العبادات ولكنها لا تكون عبادة إلَّا إذا كانت على ابتغاء رضوان الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه، فإن روح الصلاة والباعث عليها هو هذا الدعاء. وقد وجدنا أناسًا يصلون اثنتي عشرة ركعةً قبل الشروع في القطبية (عبادة شركية أحدثها المبتدعون، أهم أركانها نداء الشيخ محي الدين ألف مرَّةٍ) فهذه الصلاة روحها والباعث عليها دعاء الشيخ محي الدين؛ فهي عبادة له. فأما صلاة المرائي فليست بعبادةٍ أصلًا، لأنَّها لا تحتوي على الدعاء، وإنما هي جوفاء خالية عن المخِّ الذي هو الدعاء. فالذي يحسن الصلاة ليراه الناس وإن يكن مستحقًّا لعذاب الله بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون]، لا يكون بذلك مشركًا كافرًا خالدًا في النار.

وكذلك لا شكَّ أن الصدقة على الفقراء وإطعام المساكين عبادة، لكن بشرط أن يُبْتَغى به وجه الله تعالى، وهذا الابتغاء هو الدعاء، وأما الصدقة والإطعام على ابتغاء رضى النَّاس فليس بعبادةٍ لأنها خالية عن الدعاء الذي هو لُبُّ العبادة. وأما توزيع الصدقات وإطعام المساكين على ابتغاء رضاء أولياء الله الأموات فذلك عبادة لهم بلا شكٍّ.

إذا أذَّن المؤذن للصلاة نهض الناس من البيوت والأسواق والمكاتب مثلًا إلى المساجد، فكل هذه الحركات بعد سماع الأذان تحتوي على دعاء الله؛ فكلها عبادات لله ربِّ العالمين. والذين يريدون زيارة قبور أولياء الله للتبرك بها، والتقرب إلى أصحابها، فكل هذه الحركات بعد نيَّة السفر عبادات لأولئك المقبورين، لأنها تحتوي على دعائهم، فإنما العبرة بما تخفي الصُّدور، والله ينظر إلى القلوب، صدق رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**». وكذلك المؤمن يخاف أن يَقْرُبَ الزنا ابتغاء رضوان الله وخوفًا من عقابه، فلا شكَّ أنها عبادة عظيمة لأن الباعث عليها هو الدعاء، إلخ.

وكذلك إطاعةُ الأحبار والرهبان ومشايخ الطرق عبادة لهم، وسببه أن تلك الإطاعة تحتوي على دعاء غير الله، وأما إطاعةُ الملوك والحكام وزعماء السياسة فليستْ بعبادةٍ، لأنَّها لا تحتوي على الدُّعاء. قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وتفسيره معروف. ولم يقل الله في ضمنه: «وملوكهم»؛ ففرَّق بين إطاعة الرهبان وإطاعة الملوك. ولكن إن تكن الرعية يعتقدون أن المَلِكَ خليفة الله، نائب عنه، والمُلْك ليس من شؤون الخلق، وإنما هو مكانة ربانية، وسلطة غيبية، تجعل صاحبها

قادرًا على الإسعاد والإشقاء كما يعتقد اليابانيون في مَلِكِهم، وكما كان يعتقد أهل مصر في فراعنتهم؛ فهذه الإطاعة عبادةٌ بلا شكٍّ.

والخلاصة أنَّ الدعاء أعظم العبادات وأهمها، وأن جميع العبادات لا بد أن تكونَ مشتملةً على الدعاء، ففهم هذا الحديث مع ما ورد: «**الدعاء مخ العبادة**» حقَّ الفهم يُعين على فهم كلمة: «لا إلٰه إلَّا الله».

وقد انحرف عن هذا الحقِّ سماحةُ الشيخ الأستاذ أبو الأعلى المودودي وأتباعه، فقالوا: إن معنى الكلمة: لا مطاع بحق إلَّا الله. وبعبارة أوضح: لا أحد يستحق الإطاعة إلَّا الله. فمن أطاع غير الله فقد كفر ـ بزعمهم ـ. ولهذه الطائفة قصةٌ يحسن ذكرها، وذلك أنه لما كان جميع أهالي الهند متَّفقين على مطالبة الحرية والاستقلال وطرد الإنجليز من الهند، ولم يختلف في ذلك حزب من الأحزاب، ولا ملَّةٌ من الملل، واستعدُّوا للتضحية بكلِّ ما يملكون في هذا السبيل، قام المودوديُّون بمشاركة الناس هذا الجهادَ محتجِّين بحجَّة هي عندهم أقوى من جميع الحجَجِ؛ وذلك زعمهم أنَّ الناسَ بسبب خضوعهم لقوانين الحكومة البريطانية أصبحوا مشركين، لأنَّ إطاعةَ القوانين عندهم عبادة بلا شكٍّ. وزعموا أنه مفهوم «لا إلٰه إلَّا الله» بناء على أن معناه «لا مطاع إلَّا الله». ولهم في هذا مؤلَّفات كثيرة.

وعلى هذا الأساس حكموا بالكفر على المسلمين الذين أكرمهم الله بالإيمان، وأعلن في محكم كتابه أنه تقبَّل منهم ذلك، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي

مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ [التحريم]، ولا شكَّ أنَّ امرأةَ فرعون عاشتْ مطيعةً لأوامر زوجها وقوانين حكومته، ومع ذلك جعلها الله مثلًا للمؤمنين، فللّه الحمد على هذا التيسير والتخفيف.

ومعروف للجميع ما ذكر الله لنا عن يوسف عليه السلام من طلبه وقبوله الوظيفة تحت الملك الكافر، كما يعرف الجميع أن الرسول ﷺ بعث جماعةً من الصحابة إلى الحبشة يطلبون الأمن، ولم يعملوا هناك انقلابًا ثوريًّا ضدَّ النجاشي، بل عاشوا مطمئنين هادئين.

وعلى هذا الأساس حرَّفوا معاني الآيات التي جاء فيها الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة غيره، كما فسَّروا عبادةَ الطاغوت بإطاعة قوانين الحكومة الغير مسلمة[(١)]، رغم ما اتَّفق عليه المفسِّرون من أنَّ المرادَ من عبادةُ الطاغوت: عبادةُ الآلهة الباطلة.

وهذه المزاعم كلُّها غلوٌّ منهم، ودين الله براء منه، **وهذه الطائفة صنو جماعة التكفير والهجرة التي ظهرت في مصر قبل سنوات.**

ولا يفوتني أن أُشير إلى رأيٍ ثالثٍ عليه الأكثرية الساحقة من قومنا، وذلك قولهم أن معنى الكلمة «لا ربَّ إلَّا الله»، فإذا اعتقد الإنسان أن الله وحده هو الخالق، مدبِّر الأمور، القادر على كل شيءٍ أصبح مؤمنًا. فإذا دعا غير الله فقال مثلًا: «يا محي الدين أغثني»، أو نذر له، أو توجَّه إلى قبره، وطاف به، لا يضرُّ ـ بزعمهم ـ ما دام يعتقد أن الله وحده هو الربُّ!

وهذا خطأ بيِّن، لأن المشركين في مكة كانوا على هذه

(١) الصحيح أن يقال: (غير المسلمة).

العقيدة، ومع ذلك أنكروا «لا إلٰه إلَّا الله». فلو كان هذا معنى الكلمة لكانوا أسرع الناس إلى قبوله. وبيان هذا في القرآن في آيات كثيرة نكتفي بذكر واحدة منها، وهي قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

فإن قيل: إذا كانوا يعتقدون وحدانية الربِّ فكيف عبدوا غير الله؟

فالجواب: عبدوا غير الله ابتغاء رضوان الله بزعمهم. وذلك واضح فيما حكى الله من قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]، ومن قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فزعموا أنهم لا يعبدون غير الله إعراضًا عن الله، بل يعبدونهم للإقبال على الله، فإنَّ هؤلاء المعبودين شفعاءُ عند الله بزعمهم.

وإن أصحاب الرأي من قومنا لا يرون بأسًا في دعاء أولياء الله الأموات، فقد وجدناهم يقولون: لا ندعو الأولياء على اعتقاد أنهم قادرون على استجابة دعائنا، وعلى قضاء حاجاتنا، وكشف كرباتنا، وإنما ندعوهم على اعتقاد أنهم يشفعون لنا عند الله. وقد ترتَّبَ على هذا كثير من أبواب الشرك، فزعموا أنها لا تناقض التوحيد.

فالآراء في معنى الكلمة ثلاثة نوجزها:

الأول: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله.

الثاني: لا مطاع بحقٍّ إلَّا الله.

الثالث: لا ربَّ إلَّا الله.

يجب على المسلمين أن يفهموا كل هذه الآراء، ليتبيَّنوا أَيُّها

الصوابُ، فيتمسَّكوا بها، والله الموفِّق، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فوائد

الأولى: بعث الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم كانوا يعبدون ودًّا وسواعًا ويعوق ويغوث ونسرًا. وهؤلاء رجال صالحون ماتوا قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. فدعاهم نوح إلى قول «لا إلٰه إلَّا الله» وقال: لا تعبدوا إلَّا الله. فهل معناها: أطيعوا أوامر الله وحده، ولا تطيعوا أوامر ودٍّ وسواع؟!

ثم بعث إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فدعاهم إلى قول «لا إلٰه إلَّا الله» وقال: لا تعبدوا إلَّا الله. فهل معناه أطيعوا أوامر الله وحده، ولا تطيعوا أوامر الأصنام والكواكب؟!

ثم بعث الله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قوم كانوا يعبدون اللَّاتَ والعُزَّى ومناة وهُبَل وإبراهيم وإسماعيل، فدعاهم إلى قول «لا إلٰه إلَّا الله» وقال: لا تعبدوا إلَّا الله. فهل معناه: أطيعوا الله وحده ولا تطيعوا اللات والعزى، ولا تطيعوا إبراهيم وإسماعيل؟!

فبنظرةٍ قصيرةٍ إلى دعوة هؤلاء الرسل الثلاثة ـ والآخرون لهم أتباع ـ تبيَّن أن المعنى الذي ذكره الأستاذ المودودي لا يعرفه النبيُّون. فهذا تغيير في أهمِّ أصول الدِّين، وقد ثبت في «الصحيح»: «لعنَ الله مَنْ غيَّر مَنَارَ الأرض»؛ فكيف ظَنُّكم ـ أيُّها الناسُ ـ بمن غيَّر أَصْلَ دين الله؟![1]

(١) المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يستدلُّ بالوعيد العام على الإحداث في الدين، وهذا من باب =

الثانية: إن إبراهيم الذي أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ باتباع ملته قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ [مريم]، فمراده بـ: ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ هو الصنم وليس نمرود الذي هو أكبر طاغوت في الأرض، ومثل هذا كثير. ولكن الأستاذ المودودي وأتباعه يقولون: إن أهم الأمور وأحقها بالتقديم قبل كل شيء هو إقامة الدولة. فهذا طريق يغاير طريق المرسلين بلا شكٍّ. وقد عرض مشركو مكَّة على الرسول ﷺ المُلْكَ فرفض. فبناءً على مذهب المودوديِّ أخطأ أم أصابَ؟ نعوذ بالله من زيغ القلوب.

الثالثة: إن مشركي مكة قبل الإسلام كانوا يحجُّون بيت الله، وكانوا يقولون في التلبية: «لبيك اللهم لبيك» ومعناه إجابة لك بعد إجابة: يعني أنِّي مستعدٌّ للقيام بأوامرك يا ربُّ ولو كانت أشقَّ ما يكون. وقد كانوا يزعمون أن عبادتهم للأصنام على أمر الله. فلو قيل لهم لا مطاع إلَّا الله أسرعوا إلى قبوله. فهذا أوضح دليل على أن معنى «لا إلٰه إلَّا الله» ليس هو الذي ذكره الأستاذ المودودي. وإن أهم أسباب معارضتهم وعداوتهم للنبي ﷺ هو «لا إلٰه إلَّا الله». و﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات].

الرابعة: إنَّ ما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان العبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال

= الترهيب والتحذير وبيان ما يترتب على البدع من العقوبات الإلهية، ولا يلزم من هذا لعن المعيَّن، فلا يقال هنا: إنه يريد لعن المودودي، فقد سبق أن ذكره بعبارات التقدير، وحثَّ على الاستغفار له، بل هذا من باب الخشية على المسلم أن يلحقه الوعيد على المخالفة سواء كانت في باب الاعتقاد أو باب العمل، نسأل الله تعالى العفو والعافية والمغفرة، لنا ولجميع المسلمين.

والأقوال الظاهرة والباطنة...»؛ ليس ذلك تعريف العبادة الشاملة للعبادة المنهيِّ عنها والمأمور بها، وإلَّا فمن ذا الذي يتردَّد في بطلان قولنا: عبادة المسيح اسم جامع لكل ما يحبُّه المسيح ويرضاه، وكذلك عبادة الصنم اسم جامع لكل ما يحبه الصنم ويرضاه. ولا حاجةَ إلى الإكثار. وإنما شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ شرح عبادة الله الخاصة شرحًا وافيًا جزاه الله عن المسلمين خيرًا.

الخامسة: أولًا كانوا يقولون: «العبادة معناها الإطاعة» وكفى. ثم قالوا أخيرًا: «العبادة لها ثلاثة معان: الألوهية والرق والإطاعة». وزعموا أن كلًّا من هذه المعاني الثلاثة مراد في «لا إلٰه إلَّا الله» وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وصرَّح بذلك الأستاذ المودودي في تفسيره. وله في هذا الموضوع كتاب خاصٌّ.

فأقول: إن تفسير العبادة بالرقِّ غير صحيح، لأنه لو كان صحيحًا لزم أن ينهى الرسولُ ﷺ عن الرقِّ. والواقع أنه لم يَنْهَ عنه، بل أذن لذلك. وقد اتخذ الرقيق وتسرَّى الأَمةَ وولد له منها. على أنه قال في «لسان العرب»: «وأمَّا عَبْدٌ خَدَمَ مولاه فلا يقال: عَبَد». ووافقه عليه أصحاب معاجم اللغة. وأما ما جاء في القرآن الكريم: ﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء]، فلا شكَّ أنه ليس من عَبَدَ بفتح الباء بل من عَبُدَ بضم الباء. لأن جميع المفسرين ذكروا في معناه «اتخذتَّهم عبيدًا»، فإذن لا شكَّ أن مجرد عَبَدَ لزم كونه بمعنى صار عبدًا[1]. والفعل الذي بهذا المعنى هو عَبُد بضم الباء

(١) كذا في المطبوع، وقال في رسالته الأخيرة: (فلازم كون معنى المجرَّد: «صار عبدًا») وراجع تمام كلامه هناك فإنه أتمُّ.

لا عبَد بفتح الباء. وكذلك قولهم: طريق معبَّد، وبعير معبد، من عَبُد بضم الباء بلا شكٍّ. وليعلم أن عَبَدَ بفتح الباء لم يردْ إلَّا متعديًا، وعبُد بضم الباء لم يرد إلَّا لازمًا.

وأما التفسير بالإطاعة فغير صحيح في هذا المقام أيضًا، لأنه ينشأ منه أن إطاعة غير الله شرك. والحقُّ أنَّ على المسلمين إطاعة الرسول، وعلى الأولاد إطاعة الوالدين، وعلى الرعية إطاعة أولي الأمر، وعلى العبد إطاعة السيِّد، وعلى الزوجة إطاعة الزوج، والخلاصة أنَّ المعبود واحد والمطاعون كثير. ولو صحَّ التفسير بالإطاعة لصحَّ أن يقال: عَبَدَ أَمْرَ الله، كما يقال: أطاعَ أَمْرَ الله. ولم يرد ذلك في القرآن والحديث ولا في الأدب. وأما قوله تعالى: ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، فلا شكَّ أنه بمعنى لا تطيعوه. ولا يصحُّ إرادة هذا المعنى في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لأسباب ذكرنا بعضها. ولو فرض أن العبادة وردت بهذه المعاني الثلاثة كما زعم الأستاذ المودودي يجب علينا النظر أيُّ هذه الثلاثة يناسب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، كما هو الشأن في كلِّ كلمةٍ لها معنيان أو أكثر.

السادسة: جرت مناظرة بيني وبين عالم من دعاة المودودي وهو إمام وخطيب مسجد أهل الحديث في أرناكلم، كيرلا، الهند. والموضوع تفسير العبادة بالإطاعة. فشرحت أولًا المفاسد التي تنشأ منه. فقال صاحبي: ما كل إطاعة تراد، وإنما المراد الإطاعة المطلقة. يعني أنه إذا صدر الأمر فلا حقَّ للمأمور أن يناقش في الدليل وفي السبب، ولا يصحُّ أن يتردد أو يبدي رأيًا بخلافه. وإنما عليه السمع والطاعة. هذه الإطاعة لله وحده. فقلت: ما رأيكم في رجل أطاع

الرسول الإطاعةَ المطلقة فقال: إنه مشرك كافر. فانزعج بكلامه الحاضرون. وقد نصحته كثيرًا أن يرجع عن هذا، وشرحت له الدلائل من الكتاب والسنَّة. فأصرَّ على دعواه، وكتبها ووقَّع عليه، ولما أوشكَ أَنْ يوقِّعَ قلتُ له: على رسلك. فاستكبر، وعُزِلَ عن وظيفته.

السابعة: ألَّف بعضهم كتابًا في هذا الموضوع وصرَّح أن إطاعة الرسول لا يصحُّ أن تكون مطلقةً. واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فزعم أنَّ إعادةَ فعل «أطيعوا» تدل على أن إطاعة الرسول ليست مطلقة. ثم تجرأ أن قال: «لو لم يكرر الفعل لكان خطأً في التعبير»، أقول كيف عَمِيَ بصره عن قوله تعالى في هذه الآية نفسها: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، بدون إعادة الفعل. وفي القرآن آيات كثيرة ذكر فيها إطاعة الله والرسول بدون تكرار الفعل[(١)]، وهذا الكتاب من منشورات «جماعت اسلامي» الرسمية في مليبار. ولعل هذا سبب إهمال أميرهم الردَّ على سؤال وجهته إليه «هل هذا مبدأ جماعت اسلامي». وقد مضى على هذا السؤال خمسَ عشرةَ سنة.

الثامنة: ثم قال مناظري ـ إمامُ وخطيب مسجد أهل الحديث في أرناكلم ـ: إن يكن تفسير العبادة بالإطاعة خطأ فتفسيرها بالألوهية خطأ أيضًا، فقلت: لماذا؟! فقال: إن الملائكة سجدوا لآدم، والسجود أعظم العبادات. فاستفسرت: هل عبدوا آدم؟! فقال: نعم

(١) مؤلف هذا الكتاب موظف في السفارة السعودية بقطر اسمه محمد سليم. (المليباري)

عبدوا آدم! ولهم كتاب رسميٌ هو أهمُّ ما نشروا، ذكر فيه مؤلفه لو أن الله أمر بعبادة غيره لكان واجبًا. ثم استدلَّ لذلك بأمرين أولهما: سجود الملائكة لآدم، وثانيهما: تقبيل الحجر الأسود في الطواف.

فهذا السجود عندهم عبادة لآدم، كما أن هذا التقبيلَ عندهم عبادة للحجر. ولولا ذلك لما قدَّمهما دليلين لدعواهم، نعوذ بالله من زيغ القلوب.

وقد وجدنا أعداء الإسلام يعيبون على المسلمين أنهم يعبدون الحجر الأسود. والجواب على هذا: أَن الإنسان إن يكن يرجو أو يخاف من الحجر شيئًا فهذا التقبيل عبادة للحجر بلا شكٍّ. وإليه أشار الفاروق عمر ﵁ بكلمته الحكيمة: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفعُ». يعني أنه لو كان الإنسان يرجو نفع الحجر أو يخاف ضُرَّه فقبَّله أصبح من المشركين.

التاسعة: كان مؤسس «جماعت اسلامي» فرع كيرلا الأستاذ محمد علي الحاج صديقي الحميم، وكنت أُحسن الظنَّ به وبأستاذه الشيخ أبي الأعلى المودودي، ولم يظهر لي من دعوتهم إلَّا الخير. ففي يوم جلست أنا وصديقي الحاج محمد علي نتحدَّث في شؤون قومنا ونتحسَّر على سوء الحال. وتحدَّثنا عن الدعاة والقادة وأكبرهم الشيخ محمد الكاتب أبو عبد الصمد الذي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. وهذا رجل صالح لم أَرَ مثله بعيني في العلم والعبادة والزهد والتقوى مع حسن الخلق وإخلاص النصيحة وخدمة القوم. وقد أطال صديقي في الثناء عليه ولكنه قال

أخيرًا: يا ليته قبل الهداية. فقلت: ماذا تقول يا أخي فهل الشيخ محمد الكاتب على ضلال؟! اشرح لي ما عندك. فألقى محاضرة طويلة يمكن تلخيصها بقولي: إن حكومة بريطانيا طاغوت وإطاعة قوانين الطاغوت عبادة، فكل من أطاع حكومة بريطانيا كافر مشرك. (وهذه المحادثة قبل استقلال الهند في عام ١٩٤٦م) فقلت على أيِّ أساس تكفرون الناس؟ قال: على أساس لا إلٰه إلَّا الله. قلت: هذا أساس متين بل أمتن، فإذن لا خلاص إلَّا بقبول دعوتكم. ثم قلت: إن يكن معنى «لا إلٰه إلَّا الله»: لا مطاع إلَّا الله، فالشيخ محمد الكاتب وأنا وأنت والجميع كفار مشركون بسبب الخضوع لقوانين بريطانيا. فقال نحن ـ جماعت اسلامي ـ رفضنا هذه الحكومة، وأسَّسنا مركز حكومة إلهي في بتهانكوت، بنجاب. فلذلك نحن سالمون. فقلت: يا أخي إن يكن معنى «إلَّا الله» المطاع، ومعنى العبادة: إلَّا طاعة، ينشأ منه هذا الذي ذكرت. ولكنني لم أدرس هذا، فذرني أبحث هل هذا المعنى صحيح. فشرعتُ في مطالعة الكتب ومذاكرة أهل العلم، فأقامني هذا البحث الطويل هذا الموقف الخطير، فأصبحتُ مهدَّدًا.

تنبيهان

الأول: مع كلِّ هذا، بعدما أسسوا «دار السلام» في بتهانكوت، بنجاب، أعلن الأستاذ المودودي: «الآن قد تبيَّن الرشدُ من الغي، ومن قبل هذا كان الرشد ممزوجًا بالغي، فكان للناس عذر في رفض الدعوة، والآن لا سبيل إلى الإعتذار، فمن لم يقبل دعوتي بعد

بلوغها إليهم فهم كاليهود، فليس أمامكم أيها المسلمون إلا طريقان اثنان لا ثالث لهما: إما أن تقبلوا دعوتي أو تتبعوا سنَّة اليهود».

صرح الأستاذ بهذا في اجتماع «دار السلام» في ٢٦ و٢٧/ مارس ١٩٤٤م. (روداد جماعت اسلامي ص١٩)، وقد وجهت إلى الشيخ ميان طفيل محمد أمير «جماعت اسلامي» باكستان سؤالًا حول هذا الإعلان «هل أنتم موافقون عليه أم ماذا تقولون»؟ فلما يأتني الجواب.

الثاني: ظفر الأستاذ المودودي في البلاد العربية بقبول واحترام على حين غفلة من علمائها، فساعد كثيرًا في انتشار هذه الدعوة، لأن الناس يكتفون بمثل هذا دليلًا على صحة الدعوى وحسن الموقف، فبهذا وحده مال إلى المودودية كثيرون، ولم ينظروا إلى الدلائل من الكتاب والسنَّة، ولم ينظروا إلى تاريخ الرَّسول ﷺ، ولم ينظروا إلى النتائج والعواقب، وقد ورد في الحديث: «مَنْ وَقَّرَ صاحبَ بدعةٍ فقد أعانَ على هدم الإسلام»[1]. نسأل الله العافية.

وهل من بدعة أضر على الإسلام من هذه البدعة في التوحيد التي جاء بها الأستاذُ المودوديُّ؟! والآن جاءتنا الأنباء أنه لما تبيَّن أَنَّ المودوديين مع الخميني شرعوا يفكِّرون ويبحثون، ولله الحمد.

---

(١) حديث ضعيف جدًّا أو موضوع، أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٧٠، وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (١٨٦٢). وأخرجه يوسف بن عبد الهادي المقدسي في «جمع الجيوش والعساكر على ابن عساكر» (٤٠) من قول الأوزاعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال: ورُوي هذا من وجوه غريبة مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ غالبها ضعيفٌ.

الخاتمة

صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إياكم والغلوَّ في الدِّين، فإنمَّا أَهْلَكَ مَنْ كان قبلكم الغلوُّ في الدِّين**»[١].

فأرجو منكم ـ أيها المشايخ العرب! ـ أن تنصحوا هؤلاء الإخوان أن يرجعوا عن هذا الغلوِّ، ويتَّحدوا مع السلفيين صفًّا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص ضدَّ أعداء الله ورسوله ودينه.

والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد (١٨٥١)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، من حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنه.

المسلمون في كيرلا

محاضرة ألقاها : عمر أحمد مليباري
في مركز الإرشاد، النخيل، رأس الخيمة
يوم الخميس ١٥ شعبان ١٤٠٦هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد طُلب منِّي أن أتحدَّث في شأن الإسلام والمسلمين في كيرلا، فأقول وبالله التوفيق:

في أواخر القرن الثاني الهجري جاء إلى مليبار طائفةٌ من التجَّار العرب، من الرجال الطيبين الموفَّقين، من المؤمنين الصادقين، وكانوا يريدون نشر الدعوة إلى الله، فوسع الله لهم المجال بإيزاع(١) الشعوب وتصفية قلوبهم على هؤلاء الوافدين فاستقبلوهم استقبالًا جيدًا وأنزلوهم منازل الكرامة، ووسعوا لهم كل مجالات الحياة، وأنكحوهم بناتهم بعد إسلامهنَّ، فهؤلاء الدعاة جزاهم الله خيرًا وجَّهوا إلى الناس الدعوة إلى الله، فآمن من شاء الله منهم.

فانصرفت همَّتهم إلى إنشاء المساجد، فشيَّدوها في مدن متباعدة متعدِّدة، وإن الإخوان الذين حرصوا على قبول الدعوة تلقَّوا من الدعاة كلمة الشهادة ولم يفهموا تمامًا لوازمها ونواقضها. وصار شأن الدعاة أنهم كلما فرغوا من بناء مسجد في قرية انتقلوا

(١) أي: إلهامهم.

إلى قريةٍ أخرى ليشيدوا فيها مسجدًا، شكر الله سعيهم وأعظم أجرهم. وقد استمروا على هذا إلى انقضاء آجالهم، ولم تسمح لهم الظروف بالبقاء في محل حتى يدربوا هؤلاء المسلمين الجدد العقائد الصحيحة والآداب الإسلامية والأخلاق الفاضلة، أسوة لما فعل رسول الله ﷺ في المدينة، ثم إن هؤلاء المسلمين لم يزالوا يغيرون أحوالهم بالحسنى على ضوء ما يستفيدون من العلوم الإسلامية بتوفيق الله، ولكن شياطين الجن والإنس لم يألوا جهدًا في الإفساد، فشياطين الجن يوحون إلى أوليائهم من شياطين الإنس أقوالًا مزخرفة يغتر بها الناس، مثل ما قال بعضهم في تشييد القباب على قبور أولياء الله: إن ذلك إكرام لهم من باب الحبِّ في الله، وإن حبَّ من أحبَّ الله من لوازم الإيمان. ومثل ما قال بعضهم في شأن النذر لأولياء الله: إنَّ ذلك من الصدقة للفقراء والمساكين، والصدقة من أفضل الطاعات. وهم غافلون لا يدرون أن التقرب إلى أولياء الله وابتغاء مرضاتهم عينُ الشرك الذي جاء الإسلام لمحوه.

فصار المنتسبون إلى الإسلام فريقين: فرقة تتقرَّب إلى أولياء الله بدعائهم، والغلوِّ في الثناء عليهم، والاحتفال بمولدهم، وتشييد قبورهم، واتخاذها عيدًا، على مثل طريقة مشركي مكَّة الذين زعموا أن آلهتهم شفعاؤهم عند الله، يقربونهم إلى الله زلفى، وقالوا في تلبية الحج: «لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك» إلى آخر ما هم عليه من الشركيات والبدع، كما هو الشأن في الأرض كلها، وليس هذا بدعًا في كيرلا، وأعجب من هذا

وأشد أسفًا بقاء مثل هذه الحالة السيئة في البلاد الإسلامية العربية، ولا بأس أن أذكر لكم أنه كان في الجبيلة موقع المعركة بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ شجرة معبودة، فقام بهدمها إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وجزاه عن الإسلام أعظم الجزاء، ومعروف للجميع ما يجري من الأعمال الخبيثة المشوِّهة للإسلام حول مقبرة رأس الحسين رضي الله عنه في القاهرة، وكذلك ما يجري حول مقبرة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، فضلًا عما يجري في إيران ـ بلاد الجمهورية الإسلامية كما يزعمون ـ، والحق أنها جمهورية شيعية.

أذكر لكم مثلًا: إن مساكن الناس في كيرلا مختلطة، بيوت المسلمين، وبيوت الوثنيين، وبيوت النصارى، وبيوت الملحدين الزنادقة، والجميع أحرار في الديانة والدعوة، فلو أنَّ طائفةً من الناس يمشون فيما بين البيوت ولا يعرفون عن ديانة سكانها شيئًا، فسمعوا من بعض البيوت صوتًا ينادي يا شيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني أغثني، أو يا أهل بدر أغيثوني! يقول أكثرهم: هذا بيت مسلم، والدليل عليه كلمة الدعاء هذه، فلو خالفهم بعضهم يقال له: أنت وهَّابي، أنت ضالٌّ مضلٌّ. فقد صار حال المسلمين مناقضًا للإسلام، عيبًا عليه، حتى قال بعض حكماء المسلمين في القرن الماضي: إننا لو وجَّهنا دعوة الإسلام إلى المفكرين الأحرار في الغرب أسرعوا إلى قبولها بشرط أن نقنعهم أولًا أننا لسنا مسلمين، فلو قلنا: إننا مسلمون تعالوا معنا أعرضوا عن الإسلام. هذه خلاصة القول في شأن الفرقة الأولى، وهي الأكثرية الساحقة، ولهم علماء

كثيرون، ولهم منظمة كبيرة اسمها «سمست كيرالا جمعية العلماء»، وقد سموا أنفسهم «سنِّيين»، والحقُّ الواقع أنهم منكرو سنَّة رسول الله ﷺ. فهذا كما يقال: «القدرية» لمنكري القدر، وكلمة السنِّي في شمالي الهند وفي البلاد العربية ضد كلمة الشيعة. وليس الأمر كذلك في كيرالا، والسني في كيرالا الذي يدعو أولياء الله الأموات وينذر لهم ويدين بالخرافات والبدع، وأريد الإشارة إلى نموذج من مسلك علمائهم في تبرير موقفهم، فقد كذبوا على الله كثيرًا وعلى رسول الله ﷺ وعلى الأئمة الماضين، وإنما أذكر مثالًا واحدًا: وذلك أنهم غيَّروا معنى قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فرفضوا ما اتَّفق عليه المفسرون من أن المراد بالوسيلة التقرب إلى الله بالأعمال الصالحات كما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله، وزعموا أنَّ المراد بالوسيلة عباد الله الصالحون من الأولياء والشهداء الذين هم شفعاؤنا عند الله وهم الوسطاء بيننا وبين ربِّنا. فأوهموا الناس أن الله أمرنا بدعاء غير الله، وما إلى ذلك، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران]، وإن ضميري يحثني على أن أشرح لكم آخر ما صدر من شؤون هؤلاء القوم، وذلك أنهم أنكروا الحصر في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فقالوا: إن المعنى «نعبدك»، وأما ما شاع من أن المعنى نعبدك ولا نعبد غيرك فخطأ. وأن الذي تولَّى كبره هو الأمين العام للمنظمة المذكورة «سمست كيرالا جمعية العلماء» وقد لقبه الناس «بشمس العلماء» وهو يشرف على كلية سموها «دار السلام» في قرية اسمها

نندي في شمال مليبار، وهذه الكلية تملك مقبرة معبودة اتخذوها عيدًا أسبوعيًّا كاملًا كلَّ سنة، يأتي إليها النذور والهدايا من المشركين من هذه الأمة، تقدَّر وارداتها اليومية بالآلاف ونفقات كلية دار السلام المذكورة من هذه المقبرة أولًا، ومثل هذا كثير منتشر في طول البلاد وعرضها. وهؤلاء العلماء يخدمون هذه المقابر المعبودة، ويحضرون أعيادها، ويلقون فيها الدروس باسم الدين، وأنا أقول بكل صراحة: إن هذا الذي يدعون الناس إليه ليس دين الله قطعًا أبدًا، ولكنه دين أعداء الله ورسوله.

وجدير بالذكر أن هؤلاء بنفاقهم خدعوا حكومات الخليج وشعوبها باسم السنِّيين فاستطاعوا جمع أموال الصدقات والتبرعات التي تعد بالملايين. فأنشؤوا في كيرالا معاهد ومراكز للتربية والتعليم كل ذلك باسم الإسلام، ولكنهم يربون فيها النَّشءَ الجديد على الشركيات والبدع. وأنا والله لا أريد إلا اطلاعكم على الحقائق الواقعية حتى تتبينوا الحق وتنصحوا، والله الموفق.

وفي مثل هذا المحيط المظلم الفاسد كان هنا وهناك أفراد من طلبة العلم نوَّر الله قلوبهم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ. فأيقنوا بطلان ما نشؤوا عليه من العقائد والعبادات التي أشرنا إليها سابقًا، فبدلوها بالحسنى على ضوء الكتاب والسنَّة، فطردهم الجماهير، وسبوهم، وشتموهم، ونبزوهم بالوهابيين، ورموهم بكل ما رُمي به إمام الدعوة البريء المُفْتَرى عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وأتباعه.

وقد صبروا على كل ما أصابهم من أنواع الأذى، وبسبب ضعفهم وقلة عددهم هَجَرَ بعضهم أوطانهم، ومنهم المقتول ظلمًا جعله الله من الشهداء المقبولين، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج]، ولكنهم فكَّروا في أداء واجبهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنشؤوا منظمة باسم «جمعية العلماء أهل السنَّة والجماعة». شرط عضويتها اتباع الكتاب والسنَّة، والتزام طريقة السلف الصالح في العقائد والعبادات، ونبذ الشركيات والبدع، وبذل الجهود لنشر الدعوة السلفية. ولما قامت الجمعية بدورها وجدوا من الناس إقبالًا جيدًا يبشِّر بالخير. ووجدوا من غير العلماء الحرص على المشاركة في هذا الجهاد فألَّفوا ندوةَ المجاهدين مفتوحًا بابها للعموم، وإنَّما هذا جهاد باللسان والقلم، وليس بالسيف والرماح، وللطلاب قسم خاص فهذه منظمات أربع كلها على مسلك واحد، ولهم في طول البلاد مدارس ابتدائية وثانوية ينيف عددها مئتين، ولهم كليات عددها ستَّ عشرةَ. والآن يريدون إنشاء جامعة للإشراف على جميع المعاهد والكليات، وللتخصص في المواد المحتاج إليها في بلاد الهند، لإعلاء كلمة الله وإقامة الحجة على المخالفين، وهي في طور الإنشاء، وقد افتتح قسم التخصص في العلوم الشرعية منذ عامين.

فالمجاهدون بفضل الله يبذلون جهودهم في نشر الدعوة السلفية بعقد المجالس والمؤتمرات والمعسكرات وتوزيع النشرات الإسلامية والمجلات الشهرية والصحيفة الأسبوعية. وقد نشروا

تفسيرًا للقرآن الكريم في اثني عشر مجلدًا. وفقهم الله وسدد خطاهم.

أما من حيث السياسة فقد تركوها لأهلها لا يتدخَّلون فيها، ولا يعارضون أهلها، إلَّا للدفاع عن الإسلام والمسلمين وإنما هم يشاركون عموم المسلمين في انتخاب من يرجى منهم الخير. فلمسلمي كيرالا في الوقت الراهن ثمانية عشر مندوبًا في مجلس النواب، منهم ثلاثة وزراء، كما أن لهم مندوبَيْن في البرلمان الهندي، يحتجَّان للمسلمين ويدافعان عنهم. وجدير بالذكر أنهما وإن كانا مندوبين عن مسلمي كيرالا لكنهما يدافعان عن مسلمي الهند عمومًا.

ومن ذلك أنه لما أصدرت المحكمة العليا في الهند حكمًا بإلزام الزوج الإنفاق على مطلقته إلى أن تموت أو تنكح زوجًا غيره. فقام هذان المندوبان بالمعارضة، ووافقهما جمهور المسلمين، فالبرلمان لا يزال متوقفًا يعيد النظر في الموضوع. والمرجو حسن الختام بفضل الله.

وهذا خلاصة الكلام بالإيجاز عن السلفيين في كيرالا، وهم المدعوون بالمجاهدين، وفقهم الله، وكلَّل مساعيهم بالنجاح الكامل. ومع الأسف الشديد أقول، لما كان السلفيون يسعون لتحقيق التوحيد، وإصلاح العقيدة، ومحو الشركيات والبدع، فارقنا طائفة منَّا ناقمين منا موقفنا في السياسة. وقد سبقت الإشارة إليه، وهو البعد عن معركة السياسة ومشاركة عموم المسلمين في

الانتخاب، فقالوا: إن هذا خطأ عظيم، والصواب ـ بل الواجب ـ إقامة الحكومة الإلهية، حتى إنهم قالوا: إن الدين معناه الدولة، فدين الإسلام عندهم دولة الإسلام، وهي مفقودة في الهند بل في الأرض كلها، فأول واجب على المسلمين إقامة الدولة. وقد تدرَّج غلوُّهم إلى أن قالوا أن معنى: «لا إلٰه إلَّا الله»: لا مطاع إلَّا الله، فمن أطاع غير الله كفر ـ بزعمهم ـ.

فوجهنا إليهم السؤال عن الأمر بإطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر، مع النهي عن عبادة الرسول ﷺ، والأمر بإطاعة الوالدين. فكان جوابهم: ما كل إطاعة تُراد، وإنما المراد الإطاعة المطلقة، وقالوا: إن الإطاعة المطلقة لله وحده. يعنون أنه إذا صدر الأمر فلا يجوز التردد والمناقشة عن الدليل، كما لا يجوز إبداء الرأي بخلافه.

فسألناهم ماذا تقولون عن الإطاعة المطلقة للرسول ﷺ؟! فقالوا: إن ذلك كفر وشرك. وعلى هذا الأساس كفَّروا كل من أطاع قوانين الحكومة بدون فرق بين أمور الدنيا وأمور الدين، ويزعمون أن التفريق بين الدنيا والدين خطأ أساسيٌّ، حتى إن زعيمهم في كيرالا قال لي أثناء محادثة بيني وبينه حول ما يقول الناس في بلادنا بعد: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ربِّ اغفر لي، ثم يقولون آمين. فقال صاحبي: إن هذه الزيادة طيبة مرغوب فيها. فقلت: هذه بدعة أُمِرْنا بتركها لأن الرسول ﷺ لم يفعله. فسألني كيف تركب القطار والرسول ﷺ لم يركبه؟ فأجبت قائلًا: إن القطار محدَثٌ في الدنيا، وأما «ربِّ اغفر لي» في هذا المقام فمحدَث في الدِّين، والمحدَث في الدِّين هو البدعة المذمومة. فقال: إن تكن

إقامة الصلاة من الدِّين فركوب القطار أيضًا من الدين. فباب البدعة عندهم مفتوح بمصراعيه.

ومن أغرب مزاعمهم أن الدين معناه: الدولة. والشريعة معناها: نظام الدولة، والعبادة معناها: إطاعة قوانين الدولة، فعلى هذا المبدأ فإن مسلمي الهند بسبب خضوعهم لقوانين الحكومات: كفار ومشركون. ومن أغرب مزاعمهم أن الصلاة والزكاة والصوم والحج إنما فرضت للتدريب على إقامة الدولة والقيام بوظائفها، كما أن جميع الحكومات في الأرض وضعوا نظام التعليم والتدريب للموظفين.

ولما نجحت الثورة الخمينية في إيران قام هؤلاء بتأييدها، وهتفوا بتهنئتها، ووافقوا أهل إيران في تسمية الخميني إمام المسلمين، فإلى الله المشتكى. وإن هؤلاء تظاهروا في البلاد العربية على أنهم يسعون لتطبيق الشريعة الإسلامية في الحكم، فاستطاعوا بذلك استمالة قلوب الطيبين فساعدوهم ماديًّا ومعنويًّا. فأنشؤوا معاهد وكليات ومراكز إسلامية في المدن والقرى. وإن أهم ما يعتنون فيها نشر ثقافتهم الجديدة التي لا عهد بها للمسلمين قبل قيام حزبهم وذلك في سنة (١٩٤١م) في بتهانكوت، بنجاب. فطوائف المسلمين في كيرالا ثلاث. ولا أريد أن أقول أي هؤلاء على الحقِّ والصواب والهدى، وأترك لكم ـ أيها المستمعون الكرام ـ الحكم في هذا فانظروا ماذا ترون. فنسأل الله الكريم أن يوفِّقنا للاستقامة، ويستعملنا في مرضاته، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه، والحمد لله ربِّ العالمين.

فهرس محتويات الكتاب التفصيلي

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
١) السبب وراء نشر هذه الرسالة	٧
تحذير النَّدوي من خطر التفسير السياسي في مؤتمر الدعوة والدعاة في مكة	٨
٢) قصة مؤلف هذه الرسالة	٨
٣) كل رسالة من الرسائل الثلاث تكتسب أهميتها وخصوصيتها من شخصية مؤلفها	١٠
منهج وحيد الدين خان في كتابة رسالته	١٠
وحيد الدين خان صاحب السبق في التأصيل لحقيقة التفسير السياسي للإسلام	١٠
منهج النَّدوي الدعوي والتربوي في مواجهة التفسير الجديد للإسلام	١١
منهج المليباري تميز بالعناية بقضية واحدة من القضايا الكلية لتفسير الإسلام	١٢
السبب وراء عدم ذكر المليباري لكتابات وحيد الدين خان في هذه المسألة	١٢
الأبحاث الثلاثة تمثل مادة أساسية مهمة في دراسة ظاهرة التفسير السياسي للإسلام	١٢
٤) تفسير العبادة بـ (الطاعة) أهم أسس نظرية التفسير السياسي للإسلام	١٣
كيف تشكل التفسير السياسي للدين	١٣

الموضوع	الصفحة

نظرية التفسير السياسي للإسلام تقدم منظومة عقيدية وفكرية متكاملة لحقائق الدين والعبادة في قالب فلسفي ١٥
المودودي يقرر أن العبادات المحضة الخالصة وسائل وأدوات لغاية أخرى ١٦
المودودي: العقبة الثانية في طريق الحركة الإسلامية هي المذهبية الجامدة اللاروحية ١٧
الإسلام السياسي الحركي يبدل الجمود المذهبي بالجمود الحزبي ١٧
ما هو الغرض الذي من أجله فرضت الصلاة والصوم والزكاة والحج في الإسلام عند المودودي ١٨
المودودي: الله قد أراد ببعثة الرسل أن يقيم في العالم نظام العدالة الاجتماعية ١٨
سيد قطب يجعل أركان الإسلام في مرتبة ثانوية جزئية من الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلها وهي: الخلافة وعمارة الأرض ١٨
سيد قطب يؤكد أن هذا التقرير الصريح هو مراده مما كتبه في مفهوم العبادة في كتبه المختلفة ١٩
تأثر سيد قطب بالمودودي ١٩
غلو سيد قطب في مسألة الطاعة ٢٠
٥) مسائل استوقفت التركماني في بحث الشيخ عمر المليباري ٢٠
المسألة الأولى: معنى العبادة ٢١
مناقشة اعتراضات المليباري في معنى العبادة ٢٢
١) الفخر الرازي تنوعت عباراته في تعريف العبادة ولم يقتصر على ما نقله المليباري ٢٢
الرازي: من زعم أن العبادة هي الطاعة فقد أخطأ ٢٣
شيخ الإسلام: العبادة أصل معناها الذل ٢٣

الموضوع	الصفحة

٢) التفصيل الذي ذكره المليباري في التفريق بين (عَبَدَ) و(عَبُدَ) لم يذكره أئمة اللغة ٢٤
(عَبَدَ) و(عَبُدَ) اشتقاقهما من أصل واحد ٢٥
المسألة الثانية: تقييد العبادة بأنها: (التعظيم على أساس قوةٍ وراء الأسباب) ٢٦
المسألة الثالثة: مفهوم الدعاء ٣٤
نقل مهم عن شيخ الإسلام في معنى الدعاء ٣٦
طلب المنافع الدنيوية يأتي تبعًا لا أصالة ٣٧
المسألة الرابعة: تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة ٣٧
الرد على اعتراض المليباري على تعريف شيخ الإسلام للعبادة ٣٨
سبب اعتراض المليباري على تعريف شيخ الإسلام للعبادة ٣٨
الفرق بين تعريف شيخ الإسلام للعبادة وتعريف الحركيين ٣٩
٦) القاسم المشترك بين ردود ومناقشات وحيد الدين خان والنَّدوي والمليباري وابن باز رحمهم الله ٣٩

نبذة عن سيرة الشيخ عمر بن أحمد المليباري رحمه الله ٤١

معنى لا إلٰه إلا الله لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله ٤٥

من جوابي لفضيلة الشيخ أبي الأعلى المودودي فيما يتعلق بالفرق بين العبادة والطاعة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله ٤٨
الشيخ ابن باز يرى أن الطاعة أوسع من العبادة ٤٩

محاولة ناجحة بفضل الله لتميز الحق مما يقول الناس في: معنى لا إلٰه إلا الله ٥١
بلغ السيل الزُّبى ٥٣
انقسام مسلمي (كيرلا) إلى ثلاثة: سُنِّيين وسلفيين ومودوديِّين ٥٣

الموضوع	الصفحة
المؤلف يرسل رسالته إلى العلماء في الأرض طلبًا للإرشاد	٥٤
المؤلف يرسل رسالته إلى بعض مخالفيه في مدينة (كيرلا)	٥٥
معنى العبادة	٥٧
كلمة الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في معنى العبادة	٥٨
ما هي العبادة	٥٨
ما أساس استحقاق العبادة؟	٦٣
فصل الخطاب في الردِّ على دعوى الشفاعة	٦٦
أوضح مظاهر تعظيم الله هو: الدعاء	٦٧
تنبيه:	٦٩
الشرك في دعاء الولي له أربعة أسباب:	٧٠
الأول: اعتقاد أن الولي يسمع النداءَ بدون فرق بين السرِّ والجهرِ، وبين القرب والبعد	٧٠
الثاني: اعتقاد أن الولي يعرف كل الطلبات التي يقدمها إليه آلاف الناس	٧٠
الثالث: اعتقاد أن الوليَّ قادر على قضاء الحاجات إما ذاتيًا، أو بالشفاعة المؤثرة في مشيئة الله	٧١
الرابع: الدعاء وهو العبادة	٧١
تنبيه: بعض الناس يظن أنه إن لم يتم مراده من الدعاء فقد أصبح دعائه لاغيًا بلا فائدة	٧٣
تنبيه:	٧٤
أصل كل خير في الدنيا والآخرة	٧٥
علماء المذاهب في مكة يفتون الملك عبد العزيز بوجوب هدم القباب التي على القبور	٧٧
قصة: مندوب بريطانيا إلى الرياض	٧٧
قصة إسلام قسيس بسبب مشاهدة تشييع جنازة الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ	ت٧٨
تنبيه: يجب دراسة أسباب غضب الله واجتنابها	٧٩

الموضوع	الصفحة

تنبيه: بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن ليس من عنده بل من الله ﷻ ٨٤
هل ألف المستشار حسن الهضيبي كتاب (دعاة لا قضاة)؟ ت٨٨
معنى كلمة (أشهد) ٨٩
هناك طائفتان: إحداهما مُفَرِّطة، والأخرى مُفْرِطة في تفسير معنى كلمة (لا إلٰه إلا الله) ٩٤
الأولى المُفَرِّطة: معنى كلمة (لا إلٰه إلا الله) عندهم (لا رب إلا الله) ٩٥
أبو حيان الأندلسي لم يخالف ما تقرر من الحصر في عبادة الله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ت٩٦
الثانية المُفْرِطة: معنى كلمة (لا إلٰه إلا الله) عندهم (لا مطاع ولا سيد ولا معبود إلا الله) ٩٨
الرد على تفسيرهم هذا للعبادة: ١٠١
أولًا: التثليث في معنى العبادة لا عهد للناس بمثله من أول الدنيا إلى زمن المودودي ١٠١
ثانيًا: أي هذه المعاني الثالثة الإطاعة والعبدية (الرق) والتأله يناسب المقام ١٠٢
خلاصة القول في الطاعة الشركية ت١٠٢
العبادة والطاعة متغايرتان لا تقوم إحداهما مقام الأخرى ١٠٣
الفرق بين العبادة والطاعة ت١٠٤
نقل مهم عن شيخ الإسلام في الفرق بين الخوف والخشية والتقوى والمحبة والطاعة ت١٠٤
المودودي: الظاهر أنه لا يتأله أحدٌ للشيطان في هذه الدنيا ت١٠٥
ثالثًا: تفسير العبادة بالرِّقِّ لا يعرفه الرسول ولا أصحابه ١٠٦
تفسير العبادة بالطاعة صحيح في مواضع معينة ت١٠٦
من عدل المؤلف رحمه الله مع المودودي رحمه الله ت١٠٩

الموضوع | الصفحة

قصة محمد الكاتب مع خطأ المودودي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ١٠٩
جهل المودودي بالعربية ١١٠

معنى لا إلٰه إلا الله وما وقع فيه من الخلاف ١١٥
الدين عند المودودي معناه الدولة ١١٧
ما هي العبادة ١١٨
بيان أن الدعاء فطري ١١٩
ما هي الصلاة القطبية ١٢١
الدعاء أعظم العبادات وأهمها، وجميع العبادات لا بد أن تكون مشتملة على الدعاء ١٢٣
المودودي وأتباعه ينحرفون في معنى كلمة التوحيد ١٢٣
إذا كان المشركون يعتقدون بوحدانية الله فكيف عبدوا غير الله ١٢٥
الآراء في معنى كلمة التوحيد ثلاثة ١٢٥
فوائد: ١٢٦
الأولى: المعنى الذي ذكره المودودي لكلمة التوحيد لا يعرفه النبيُّون ١٢٦
الثانية: قول المودودي: أهم الأمور وأحقها بالتقديم قبل كل شيء هو إقامة الدولة ١٢٧
الثالثة: أهم أسباب معارضة مشركي مكة للنبي صلى الله عليه وسلم كان في لا إلٰه إلا الله ١٢٧
الرابعة: معنى ما ذكره شيخ الإسلام في بيان معنى العبادة ١٢٧
الخامسة: الرد على المودودي في أن العبادة لها ثلاثة معان: الألوهية، والرق، والإطاعة ١٢٨
السادسة: مناظرة بين المؤلف وبين داعية من دعاة المودودي ١٢٩

الموضوع | الصفحة

السابعة: كتاب من منشورات (جماعت اسلامي) يصرح فيه كاتبه أن إطاعة الرسول لا تصح أن تكون مطلقة ١٣٠
الثامنة: مناظر المؤلف يقول: إن كان تفسير العبادة بالطاعة خطأ فتفسيرها بالألوهية خطأ أيضًا ١٣٠
التاسعة: المؤلف يقول لأحد أتباع المودودي: إن كان تفسير معنى (لا إلٰه إلا الله) لا مطاع إلا الله، فالشيخ محمد الكاتب وأنا وأنت والجميع كفار مشركون ١٣١
تنبيهان: ١٣٢
الأول: إعلان المودودي: ليس أمامكم أيها المسلمون إلا طريقان اثنان لا ثالث لهما: إما أن تقبلوا دعوتي أو تتبعوا سنَّة اليهود ١٣٢
الثاني: من أسباب انتشار دعوة المودودي قبوله واحترامه في البلاد العربية ١٣٣
الخاتمة ١٣٤

المسلمون في كيرلا ١٣٥
التجار العرب ينشرون الدعوة الإسلامية في بلاد الهند ١٣٦
همة التجار العرب كانت في تشييد المساجد ولم تكن في بيان معنى كلمة التوحيد ولوازمها ونواقضها ١٣٦
المنتسبون إلى الإسلام في كيرلا على فريقين: ١٣٧
الفرقة الأولى: وهي الأكثرية الساحقة، تتقرب إلى أولياء الله بدعائهم، والغلو في الثناء عليهم، وتشييد قبورهم، واتخاذهم عيدًا ١٣٧
مظاهر الشرك موجودة في البلاد الإسلامية العربية ١٣٨
الفرقة الثانية: أهل السنة والجماعة (السلفيون) ١٤٠
الطائفة الثالثة: التي تحارب السلفيين أتباع المودودي ١٤٢

هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على الرسائل العلمية التالية:

١- «محاولة ناجحة بفضل الله لتمييز الحقِّ مما يقول الناس في: معنى لا إله إلا الله»، للعلامة السلفي والداعية الهندي عمر بن أحمد المليباري رحمه الله، ألفها سنة (١٤١٢/١٩٩٢).

٢- «معنى لا إله إلا الله وما وقع فيه من الخلاف» للمليباري أيضًا، وهي مختصرة نشرها سنة (١٤٠٦/١٩٨٥).

٣- «كلمة في معنى لا إله إلا الله» لسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، نُشرت سنة: (١٤٠٨/١٩٨٦)، قال في أولها:

«فقد اطلعت على الكلمة التي كتبها أخونا في الله العلامة الشيخ عمر بن أحمد المليباري في معنى لا إله إلا الله، وقد تأملت ما أوضحه فضيلته في أقوال الفرق الثلاث في معناها،... والصواب هو الأول كما أوضحه فضيلته».

٤- «من جوابي لفضيلة الشيخ: أبي الأعلى المودودي فيما يتعلق بالفرق بين العبادة والطاعة» للشيخ ابن باز ـ أيضًا ـ، كتبها سنة: (١٣٩٢/١٩٧٢)، وفيها:

«قال لي بعض الإخوان المقيمين في البلاد من أهل مليبار عن فضيلتكم أَنكم ترون أن العبادة تُفسَّر بالطاعة، وكتب إليَّ الشيخ عمر بن أحمد المليباري ـ أي صاحب مجلة السلسبيل ـ في هذا الموضوع جازمًا بما ذُكر عن فضيلتكم، وعن الجماعة، وأرسل إليَّ نسخةً من استفتاءٍ تعميميٍّ في هذه المسألة، وقد استغربتُ هذا الأمر،... وبهذه المناسبة فإنِّي أرجو من فضيلتكم الإفادة عما لديكم في هذا الموضوع،..».

٥- محاضرة: «المسلمون في كيرلا» ألقاها الشيخ المليباري في رأس الخيمة سنة (١٤٠٦/١٩٨٦).

٦- مقدمة دراسية كتبها: عبد الحق التركماني، فيها فوائد ومناقشات، وبيان لأهمية هذا الكتاب في التفسير الصحيح لأصل الدِّين ونقد التفسير المنحرف، ووجه ارتباط ذلك بالتفسير السياسي للإسلام الذي هو المنبع الأساس لانحرافات الجماعات الإسلامية المعاصرة، وما نتج عنها من التطرف والعنف والإرهاب الذي يضرب الدول المسلمة في أمنها واستقرارها، ويمزِّق مجتمعاتها، والله المستعان.


ISBN 978-1-63068-674-1
9 781630 686741